بقايا من شتات الله

أبو عبدو البغل

إياد الغفري



بقايا من شتات الله

إياد الغفري

الناشر: iyad.alghafari@gmail.com 2016

الرقم الدولي المعياري للكتاب: 978-1-326-86417-0

الطبعة الأولى: 2016 – 11 –14

الغلاف : بعدسة إياد من كنيسة St. Marien zu Neuss

الناشر: iyad.alghafari@gmail.com

ألمانيا

Cover by Iyad Foto von St. Marien zu Neuss

First published as e-book: November 2016

ISBN: 978-1-326-86417-0

Iyad Al Ghafari
iyad.alghafari@gmail.com
Germany

شكر

النطاسي ماهر ع.

أول من قرأ النص ونبهني لبعض الكوارث

شكراً

الاختراع

توصل نزار لاكتشاف خلية ضوئية تحول أشعة الشمس لطاقة كهربائية، ليس كما نعرف حتى اليوم وإنما تختزل الوقت والمساحة بشكل كبير... التصميم سري للغاية، وهو في مراحل التخطيط لبيع براءة الاختراع لجهة ما....

العائق الوحيد هو أن المليارات التي سيجنيها لن يكون لها معنى، لأن القيمة التي نعرفها اليوم للأوراق النقدية ستتغير في المستقبل القريب.

الاختراع عبارة عن مكعب حجمه يماثل حجم الكف، يلمع كأنه مكون من مئات المرايا العاكسة، يمكن وضعه بالشمس لمدة ثلاث ساعات على الأقل وعشرة كحد أقصى، تقوم الخلايا الضوئية بتحويل الطاقة التي تحملها الأشعة الشمسية إلى طاقة كهربائية بفعالية مذهلة، وتخزينها في البطارية المحسنة المصنوعة من رقائق كربونية ثنائية الأبعاد داخل الجهاز، قد يتساءل الجاهل مثلي عن الرقائق الكربونية ثنائية الأبعاد حيث أن هذه التقنية ما تزال لغزاً غامضاً بالنسبة للغالبية العظمى في عصرنا هذا.

كل الأشياء التي نعرفها ثلاثية الأبعاد، لها طول وعرض وارتفاع... تخيل عندما كنت صغيراً ورسمت الشجرة الأولى على دفتر رسم أو جدار، مسطحة كانت اللوحة... لا عمق لها، مع مرور الزمن اكتشفت أن هناك بعداً ثالثاً للأشياء وأن الرسوم التي على كراسك مهما لعبت بالإضاءة وتقنيات اللون، بل وحتى لو بدت حقيقية فإنها كانت ثنائية الأبعاد...عندما صار عمرك ستة سنوات أحضر لك أهلك أصابع من المعجون الملون للعب، يومها كانت الصدمة الإبداعية حيث أن الشجرة الأولى كان لها بعد ثالث...

اعكس هذه العملية، عد من مرحلة النضج للطفولة، وتخيل أن الأشياء التي تعرفها بأبعاد ثلاثة تتحول لرسومات ذات بعدين فقط، شرائح كربونية تستخدم لصناعة السوبر بطارية... بطارية طولها يساوي عرضها بالتمام خمسة عشر سنتيميتراً، لكنها لا ارتفاع لها... تماماً كشجرتك الأولى قبل أن تلوثها فكرة المعجون وتنقلها من النظرية للتطبيق.

صنع نزار حتى اليوم بضعة ملايين من هذه الشرائح التي تتناهى في الرقة بحيث أنها لا ارتفاع لها، ووضعها فوق بعضها في صندوقه الذي سيقلب الكون كما نعرفه... لم تشغل حيزاً على الإطلاق بل كانت تبدو كما لو أنها طبعت على أسفل الصندوق كلوحة، استمر في تصنيع الشرائح في مختبره وهو يحلم بأن يملأ بها هذا الصندوق، لكن الشرائح ثنائية الأبعاد كانت تصطف فوق بعضها، تترابط عضوياً ولا تشغل حيزاً.

استيعاب البطارية الحالي لتخزين الطاقة الكهربائية لا يمكن حسابه بعد، يقدره نزار بشكل تقريبي الآن ولن يتمكن من حسابه بدقة إلا بعد دخول البطارية مرحلة التشغيل بالطاقة القصوى... بعد أن يتم ربط شبكات الطاقة لمدينة ما بجهازه... مدينة تحتوي عدة ملايين من البشر، بشر يأكلون ويشربون ويتناسلون ويستهلكون.

يقدر العلماء اليوم أن ثلاثة تريليونات قدم مكعب من الغاز الطبيعي قادرة على توليد طاقة كهربائية قد تصل إلى 60 ألف ميغاوات... الدراسات تقول أنه بتحسين محطات توليد الطاقة وتقليل الهدر الناجم عن ضياع الطاقة بالإشعاع الحراري الذي لا يعتبر خسارة مادية فحسب بل يمثل عاملاً من العوامل المساعدة على تفاقم مشكلات الاحتباس الحراري... بهذه التحسينات ومع استخدام أحدث التقنيات قد يمكننا الوصول إلى 67.32 ألف ميغاوات، هذا التحسن سيساعد على الحفاظ على البيئة وسيطيل في عمر المخزون الذي نشأت عليه حضارتنا الحالية من الوقود الطبيعي الناجم عن المستحاثات.

أحد أجداد نزار كان حمدي، شيخ لطيف حالم، يعيش في دمشق التي شهدت دخول الترام والكهرباء، وصول المياه لبيوتاتها بالأنابيب الرصاصية...

مواكبة حمدي لدخول الحضارة وانتقال مدينته للحياة العصرية ولد لديه نوع من البحث العلمي الفطري، كانت لديه أحلام ومشاريع لكنه لم يجرؤ على روايتها إلا للأطفال، كان مشروعه الأول للتعدين هو جمع القمامة والاستفادة من الفضلات المعدنية الموجودة ضمنها... هذا المشروع كان يثير ابتسامات البالغين ويخلق مئات التساؤلات عند جيل الأحفاد، تساؤلات تفتح الأعين الصغيرة العطشى للمعرفة لحده الأقصى... مدرس العلوم في المدرسة ضحك من اقتراح نزار... هذا ما ينقص البشرية... أن نستخلص المعادن من القمامة المنزلية..

المشروع الثاني الأهم والذي مازال في ذاكرة نزار هو توليد الغاز الطبيعي من روث البقر، بئر عميقة كتيمة تملأ بروث وفضلات الأبقار والبشر، وتغطى بغطاء ثقيل موصول بأنابيب كتيمة، تبخر الغازات يتم جمعه وضغطه ليستخدم بديلاً عن الغاز الطبيعي... مشاعر تراوحت بين القرف عند الصغار من طعام يطهى على غازات طبيعية روائحا مقرفة، وبين ابتسامات هازئة من الأقارب الذين يلاطفون حمدي ويعتبرون أن الخرف الشيخي الذي طاله يلعب دوره، ابتسامات تشوبها تمنيات ألا يكون هذا الخرف وراثياً.

عندما توفي حمدي في بداية السبعينات من القرن الماضي لم يكن هناك قمامة بلاستيكية ليعاد تصنيعها، ومشروع الغاز البقري من تخمير الروث ومن تجشوآت الأبقار كان أقرب لترهات عجوز مخرف من فكرة خيال علمي.

وحده نزار بقي يذكر الساعات الطويلة التي قضاها يفكر باكتشافات علمية ستغير وجه التاريخ بينما العم حمدي يسرد قصصه، لم يكن كتاب الفيزياء المسلية بجزئيه من طباعة دار رادوغا هو الوحيد الذي احتوته مكتبة أبيه، الشيوعي التائب... كتب كثيرة كانت تبشر بمستقبل جديد للبشرية، نظام يتساوى فيه الجميع... لكل بحسب حاجته ومن كل حسب استطاعته، كتب ترسم صورة عالم يقرر فيه الرفاق من فلاحين وعمال ما هو الأفضل للبشرية.... لم يفهم الجدلية والديالكتيك يومها، لكن تجارب الفيزياء المسلية كانت فتحاً لا يستهان به رافق سنوات طفولته، دافعاً للمخترع الصغير ليكتشف العالم والطاقة...

كانت كتب دار رادوغا التي يرسلها الاتحاد السوفياتي للرفاق في الحزب الشيوعي كتبرعات... تباع في مكتبة ميسلون التابعة الحزب وتدخل عائدات بيعها لخزينة الحزب... أو هكذا قيل له لاحقاً.

كتب الدار كانت تتميز بورقها الصقيل والرائحة الخاصة لهذا الورق، رائحة لا يمكن وصفها لمن لم يقرأ تشيخوف والقصيدة التربوية وحياة فلاديمير إليتش الطفل.

هذه الرائحة ما تزال تعشش في أنفه وهو يطور اختراعه.

للورق رائحة تميزه، لا ينسى كيف أن أنفه كان يقارن روائح كتب دار رادوغا، مع رائحة مطبوعات اتحاد الكتاب العرب... رائحة منشورات دار الكتب المصرية التي تحتوي القليل من العفونة، ويقارن هذه الروائح مع رائحة مجلة البوردا التي كانت أمه تحرص على استخدامها لاستخراج تصميمات لأثواب جديدة، نظريته عن رائحة الكتب لم يتمكن من إثباتها إلا في نهاية المرحلة الإعدادية، عندما وقع تحت يديه الكاتالوج الأول... مجلة جنسية رائحتها كرائحة الفانيليا... لرائحة الورق فيها عذوبة خاصة، رائحة تمسح عفن رائحة الروايات المصرية وتنسيه رائحة الرطوبة المغبرة التي تنبعث من كتب وزارة الثقافة... رائحة جميلة مع طباعة بألوان غاية في التمايز على ورق صقيل... صور الأجساد العارية للنساء، وضعياتهم، العانات المشعرة التي تترك للخيال تصور ما يقبع خلفها... ورائحة شديدة اللزوجة... عطر جنسي خاص.

وحدها الكتب الجامعية كانت عديمة الرائحة، لم يتمكن من التواصل مع كتب الثقافة القومية الاشتراكية عديمة الرائحة ولا المنشورات الحزبية التي كانت تهدى إليه، على سبيل التملق والتي كانت مكتبته تحتويها كأيقونات حماية من شر قادم.

أغلق الصندوق المحتوي الاختراع، النهاية باتت قريبة جداً، عليّ التوقف الآن عن التطوير، حان وقت العمل.... نفض الذكريات، عطس ليخرج من أنفه رائحة الكتب التي اختلطت برائحة الصور الجنسية... تذكر أن لجده حمدي مشروع أخر فيه لحوم قطط وكلاب، لكنه نسي تماماً الفائدة العملية المتوخاة من ذاك المشروع.

بعمليات حسابية استغرقت سنوات، سنوات تزامن فيها تصنيع الشرائح الكربونية ثنائية الأبعاد ورصفها بعشرات الآلاف في الصندوق مع تحليل لقدرة البطارية الخارقة على التخزين، لوغاريتمات ملأت مئات الصفحات حسبت بدقة متناهية الزمن اللازم لشحن البطارية ولإيصالها لحالة التعبئة الكاملة "فول شارج"، لا يزعم نزار أن حساباته كانت خالية من الأخطاء... بل هو متأكد من صحتها حيث أنه دققها ثلاث مرات على مدار السنوات العشرة السابقة... كانت تسليته الوحيدة وهو ينتظر انتهاء شرائح الكربون الثنائية الأبعاد الأخيرة لتكون جاهزة ليتم ربطها بسابقاتها...

أخيراً أتت اللحظة المناسبة لغلق الصندوق والاكتفاء بالعدد الذي أنتجه حتى الآن، حسب الحسابات الأخيرة التي أخذت بالحسبان أخر دفعة من الشرائح والتي أضافها مساء أمس، بإمكانه التأكيد أن الشحن الكامل للبطارية العملاقة سيعطي 19.87 ألف ميغاوات، تيار نظيف ثابت، لا يتأثر بالعوامل الطبيعية والكوارث، لا يمكن لأي تسونامي أن يوقف تزويد مدينة بالكهرباء من هذا الجهاز، ولا حتى الأزمات السياسية التي تحكم مناطق إنتاج النفط وخطوط نقله سيكون لها أي دور في حرمان سكان المدينة من طاقتهم...

الحسابات المعقدة لاحتياجات مدينة للطاقة الكهربائية كانت المشكلة الأساسية، حسب حسابات المدينة التي يقيم فيها اليوم ستكفي البطارية لتزويد المدينة بالطاقة لمدة أربعة سنوات وستة أشهر تسعة أيام... لكن الحسابات تأخذ بالاعتبار الاستهلاك الحالي للطاقة الكهربائية، ولكن وبافتراض إمكانية الحصول على الطاقة الكهربائية بالمجان، سيتوقف استخدام الفحم الحجري والفحم البني...

- لن يتم استعمال الفحم إلا للأراكيل من اليوم فصاعداً، قالها مبتسماً وهو ينفث الدخان في الهواء...

سيتم إلغاء كافة السيارات العاملة على البنزين والديزل وسيتم استخدام السيارات الكهربائية، وستتحول كافة أنواع التدفئة، وسائل الطهي، للكهرباء... مثل هذا التغيير سيخفض عمر البطارية للربع، لا ننسى الهدر الذي سيصاحب هذه الثورة الكهربائية. لن تطفئ الأضواء في المدينة ليلاً نهاراً، التبذير سيخفض ما تبقى من عمر البطارية للنصف، الحسابات هنا غير دقيقة وتعتمد بشكل كبير على الحدس... توقعات نزار كانت بأن مدينته بسكانها وضواحيها سيستهلكون شحن البطارية الكامل في أقل من تسعة أشهر ويوم....

لا يهم، نحتاج لتعريض البطارية للشمس بين ثلاث وعشرة ساعات مرة كل ثمانية أشهر لنبقى متأكدين من الفاعلية الكاملة لها، وصل نزار لهذه الخلاصة وهو يثبت الغطاء على بطاريته الأولى ويتأكد من متانة المقبسين الأيمن والأيسر اللذان سيربطان البطارية لشبكة توزيع الكهرباء في المدينه.

لا أريد أن أضجركم بتقنيات تصنيع المقابس التي ستتحمل هذه الطاقة الكهربائية دون أن تنصهر، لأن الأمر معقد للغاية... علمياً... ببساطة يمكن اعتبار أن الطاقة الضائعة التي تهرب عادة

من المسار الذي يخصص لها سيتم توجيهها بتقنيات النانو لتكون طاقة بدلاً من طاقة ضائعة، كخرطوم ماء مطاطي يمر به الماء بضغط عالي، الطاقة القادرة على تدمير الخرطوم وتمزيقه، يمكن السيطرة عليها وتوجيهها لعمل هادف بدل من أن تتحول لطاقة تدميرية، يمكن أن يكون هذا الفقدان للطاقة كسباً وظيفياً يساعد على حماية الجهاز ككل... الطاقة المدمرة ستشكل الحماية للجهاز بدل من أن تدمره.

الخطوة الأولى الآن هي تسجيل براءة الاختراع للحفاظ على حقوق الملكية الفكرية وبعدها ستبدأ الخطوات الجدية للاستثمار.

هذا هو الشيء الأول الذي سأقوم به صباح الغد...

كانت جملته الأخيرة قبل أن ينام من شدة الإرهاق، لا يدري أين غلبه النوم على كرسيه أم على أرض المختبر، ولا كيف وصل للسرير... لكنه نام كطفل ولم يحلم إلا بصورة حمدي يبتسم له ابتسامة رضى وفخر بينما يرتجف شاربه الأبيض المصفر عند فتحتي الأنف وهو يسعل ما تبقى من صحته ليبصقه بلغماً مختلطاً بدماء قانية في منديل قماشي كبير.

المرآة على جدار الحمام

استيقظ نزار للمرة الأولى دون أن يركض للمختبر، للمرة الأولى منذ زمن طويل لا يكون همه الأول بعد الاستيقاظ، نزع الشرائح الكربونية ثنائية الأبعاد الجاهزة وربطها بالجهاز ليتم تصنيع غيرها... للمرة الأولى لا تتناثر على منضدته أوراق وقصاصات تحتوي حسابات معقدة، فقط سلة مهملات كبيرة مليئة بمئات القصاصات الممزقة، دفتر جلده بدأ بالتشقق يحتوي المعادلات النهائية، الوصفة السحرية لحل مشكلة الطاقة، والبطارية الأولى.

دخل للحمام ليستحم، كان الاستحمام عقابه الوحيد خلال السنوات السابقة، فقط الوقوف تحت مياه الدوش الباردة كان كفيلاً بمنعه من التفكير في العمل، الآن يستحم ويكتشف للمرة الأولى أن صنبور الدوش يمكن تحريكه بتركيز شديد ومعايرته كي لا يكون الماء شديد البرودة أو شديد الحرارة... متعة هو الاستحمام بماء دافئ معتدل....

- لو أنني عرفت بأنني يمكنني تعديل حرارة الماء في هذا الدوش الملعون، لربما انتهيت من أبحاثي بشكل أسرع... ولربما كانت رائحتي ستقلل من استياء من تبقى من الأصدقاء، كم من الدقائق كان بإمكاني كسبها من إجراء الحسابات أثناء الاستحمام... شهور بالتأكيد كنت سأكسب.

لا يهم هذا الآن، الرعب الحقيقي واجهه في مرآة الحمام المغطاة بالبخار، عبر الضبابية التي منحت المرآة جاذبية خاصة، لمح خصلات شعر مبللة، يختلط فيها اللون الرمادي بلون اسود صدئ، أقرب للاحمرار يلتصق بجبهة عريضة يمكن القول عنها أنها تقترب من الصلع بخطوات سريعة، جفف شعره بالمنشفة التي يبدو أنها رمادية، لكنه يذكر أنها كانت يوماً بيضاء....!

- أكاد لا أعرف هذا الشخص الناظر لي من خلف الضباب... أأنا هذا؟ لا يمكن، عيناي تحيط بهما هالة من السواء، وأكياس متعبة تنسدل تحت العين، رغم هالة السواد يمكنني ملاحظة حبوب صفراء...

- يا إلهي، كم لبثنا...!

ضحك من المقاربة مع أهل الكهف، مختبره كان الكهف الذي انعزل به عن العالم، للمرة الأولى يحاول التفكير بالتاريخ... اليوم... متى بدأت هذا المشروع، عشرون عاماً مرت منذ أمسك بها يد صديقته وقادها للرقص، كانت حفلة لرأس السنة... راقصها وضمها وحاول ترديد كلمات الأغنية ليزيد من إعجابها به، حاول أن يكون مؤثراً لكنها كانت كبطة بيضاء تكاكي... تفتح منقارها برتابة وتهز أردافها وترقص بانسيابية مذهلة، لكنها مصطنعة...

- ما اسم الصوت الذي تصدره البطة، سؤال حيرني دوماً عندما كنت مع صديقتي... صوتها يشبه صوت البط.... غريبة اللغة العربية، معظم

أصوات الحيوانات موجودة فيها حتى الأفاعي صوتها اسمه الفحيح، الحيوانات الأخرى لها ثغاء، خوار، نقيق، صفير، عواء، زقزقة، عويل، نواح، نباح، مواء، هديل، حتى الماء له خرير، ورق الشجر له حفيف والنار لها هسيس، وحدها البطة، لا يخطر ببالي اسم صوتها... تكاكي، تزعق، أم تبطبط؟

انتهى من تجفيف جسده، كعادته تنتزعه فكرة يبحث عن إجابة لها من دوامة الواقع ينسى آثار السنوات على جسده المترهل، ينسى الحرمانات التي عاشها مجبراً أو مختاراً ويحاول العودة للواقع.

- لا يهم... أنا أقترب من الكهولة الآن، نسيت النساء والجنس... أنا قدمت للإنسانية أهم اكتشافاتها، منذ اكتشاف الإنسان الأول للنار، واختراع الواقي الذكري... يمكن اعتبار بطاريتي الخارقة الاكتشاف الأهم.

كان كسائر أبناء جيله محتاراً في سبب وجوده بالأساس، لم وجدت أصلاً، ما هو الله؟ من أنا؟ هل سأموت بعد عدة عقود وأنسى من قبل الجميع؟

الإله الذي كان يقدم الحلول لأتباعه، عاقب الملحدين بأن حرمهم من الجنة، الحرمان ليس في يوم القيامة والدينونة... ليست الجنة تلك الحديقة الغناء، بخمورها وحور عينها والغلمان المخلدين...

الجنة الحقيقية للمؤمن هي التوازن الذي يحققه له الإيمان، الجنة هي الإيمان بقوة تحجب كافة التساؤلات العبثية التي تخطر بباله، حلاوة الإيمان كما كان يسميها أصدقاء طفولته... تلك الغيبوبة اللذيذة.

- لا يهمني كل ما يقال، أنا المخترع الأهم على وجه الأرض، معظم الصراعات البشرية التي مزقت العالم كانت للسيطرة على منابع الطاقة، النفوذ، المال، كل هذا ستحله عبقريتي....

كان يستخدم اختصار "شكث" للشرائح الكربونية ثنائية البعد، أما للجهاز النهائي فكان محتاراً بأي اسم سيدعوه:

جهاز تخزين الطاقة الشمسية كهربياً اللا محدود...؟

لاستحالة اشتقاق مصطلح أو اختصار للبطارية العجائبية من الأحرف الأولى توقف عن محاولات نحت اسم لها وقرر تسميتها بالصندوق، الصندوق الكلي، الصندوق العجيب، صندوق الطاقة... خيارات لا متناهية... يشعر بأن صعوبة إيجاد اسم للاختراع أكبر من صعوبة التصنيع نفسها.

جرس الباب يرعبه، يندر أن يقرع الجرس في منزله الذي تحول لمختبر أبحاث منذ عقود، سقطت المنشفة من يده على الأرض المتسخة، ارتدى على عجل ثيابه كيفما اتفق واتجه ليفتح الباب الخشبي الذي يفصل عالمه عن عالم الجيران....

وراء الباب كان يقف جاره القاطن في الشقة التي تقع مواجه شقته،

- ما تواخذني جار، لكون أزعجتك؟؟؟
- لا أبداً كنت أستحم، أمر!
- لأ بس كان بدي أعرف إذا الكهربا مقطوعة عندك؟
- أي أظن... ، إذا كانت مقطوعة عندك بتكون مقطوعة عندي...
- لا عندي ما في مشكلة، عندك كمان متل مالي شايف، جايي الكهربا.. شو سارق خط؟ "يوضح الجار سبب شكوكه"، موظفي الكبانية أجوا اليوم الصبح وفكوا العداد تبعك، قال عليك تأخير بالفواتير ثلاث مرات، سحبوا العداد وعليك غرامة...
- لم أنتبه، الإضاءة عندي تعمل على شاحن بطاريات... ولكن أكيد كنت سأنتبه في المساء عندما يفرغ الشحن.
- بسيطة جار بس حبيت نبهك، لأنك ما فتحت الباب وقت الموظفين أجوا.

اعتذر من الجار، شكره وشعر براحة كبيرة عندما سمع صوت باب منزل الجار يغلق خلفه، كان يحدث نفسه بابتسامة المنتصر...

- جميل هذا ما كان ينقصني لتكتمل معي، تأخير في تسديد فواتير الكهرباء وسحب العداد، ... الأغبياء لا يعرفون مع من يتعاملون... على مؤسسة الكهرباء أن ترسل لي اعتذاراً خطياً... أنا من حل أزمة الطاقة الكهربائية، لست بحاجتهم ولا بحاجة عدادهم الغبي، يا إلهي... في المستقبل القريب ستصبح غابة العدادات العشوائية التي تزين مداخل الأبنية جزء من الماضي، كقناديل الكاز، بوابير البريموس، واللوكسات... هكذا ستصبح عدادات الكهرباء، لهواة اقتناء التحف الأثرية فقط.

ارتدى بنطال الطقم الرسمي وأفضل قمصانه، عقد ربطة عنق حريرية، كانت في زمن سابق من صيحات الموضة، وأرتدى جاكيت الطقم وعاد للمرآة في الحمام، كان البخار الذي جعلها ضبابية قد تحول لقطرات تنزل على السطح الأملس كدموع وتحول صورته لصورة مشوهة قد تكون من أعمال مودلياني...

صفف خصل الشعر التي جفت بمشط أسود، تختلط فيه بقايا شعيرات ملتفة مع زغب الألبسة القطنية، وغبار لا يدري إن كان مصدره من القشرة التي تغزو رأسه وتهطل كالمطر على أكتاف الطقم الكحلي العتيد، أم أنها من مصدر خارجي، بلل المشط بماء الصنبور الذي يقطر بتواتر سريع وحاول تصفيف الشعر بمده وتدويره ليغطي أكبر قدر ممكن من الصحراء التي تمتد من صدغيه لتصل للنصف الخلفي من جمجمته.

لم ينتبه لمرور السنوات... اليوم وللمرة الأولى يشعر بأن الزمن قد مر بسرعة... ما يراه في المرآة يذكره بصورة جده قبل وفاته بسنوات،

- الصلع وراثي كما يبدو في العائلة...

العينان ورغم الهالات والانتفاخ الذي تسببه أكياس الدمع المتهدلة تحتهما تذكرانه بحمدي...

- لا بد أن النبوغ في العائلة وراثي أيضاً... ليس الصلع هو الوحيد ما ورثته من العائلة....

انتزعه صوت نقط الماء من الصنبور المعطل من تأمل أثار السنين على وجهه...

- لا بد من إصلاح هذا الصنبور... الآن أنا متفرغ لهذه المهمة.

رغم العبقرية والنبوغ... إلا أنه كان كسول لدرجة عجيبة عندما يتعلق الأمر بإصلاح أي شيء في المنزل، بالنسبة له إصلاح جلدة الحنفية يتطلب جهداً أكبر من حل مشكلة الطاقة للجنس البشري.

- لا يهم في المستقبل القريب سأنتقل للعيش في مكان أخر، الآن يجب فصل الصندوق عن شبكة المنزل، لا يجب أن يدرك الجيران أنني لست بحاجة لمؤسسة الكهرباء الغبية، سأعمل على دفع الغرامة وإعادة التيار الكهربائي الأثري كيلا أثير شبهات الجيران، الصندوق جاهز ويمكن تغذية المدينة منه، لكن تسجيل الاختراع والأمور الروتينية ستأخذ وقتها، لا يمكن أن أبقى بدون كهرباء في منزلي وأنا أحمل في جيبي كهرباء تكفي ملايين الناس لشهور طويلة.

لكون الصندوق شبه فارغ رغم احتواءه عشرات الآلاف من الشكث، كان بإمكانه تصنيع ناقل صغير يعمل بشكل موجات لا سلكية، هذا الجهاز كان يملأ الفراغ الذي لا تملأه رقائق الشكث بإمكان الجهاز إرسال الطاقة عبر الأثير دون أن تؤثر على من يقترب من مجالها أو تؤذيه... مستقبل صغير كان يستقبل الطاقة ويغذي شبكة الإنارة وبعض الأجهزة المنزلية... التقنية جيدة ولكن لا يمكن إرسال كمية كبيرة بواسطتها لأن هذا سيسبب ضرراً صحياً على الأشخاص الذين سيتعرضون لموجات الطاقة... التأثيرات الصحية لا يمكن التنبؤ بها اليوم بشكل دقيق، الأمر يحتاج لسنوات من البحث للتأكد إن كانت هذه الأمواج مؤذية للكائنات الحية، وإلى أي درجة... البحوث ستتطلب ألاف فئران المخابر التي ستضحي بحياتها بسعادة لتخدم الجنس البشري....

- يجب العمل على تحسين طريقة النقل هذه... هذا سيوفر الكثير من الجهد... لكن نقل الطاقة عبر الأثير ليس هو الاختراع الهام، ولا حتى مجمعات الطاقة الشمسية المحسنة القادرة على اختزال القرون، وجمع الطاقة من أشعة الشمس... كل هذه التقنيات كان البشر ستوصلون إليها عاجلاً أم أجلاً... الإبداع هو في تخزين اللحظة، الشكث "شرائح الكربون ثنائية البعد" هو الإنجاز الذي تدين البشرية لي به.

نزل الدرج على عجل ينوي البدء بالخطوات العملية لانتزاع الاعتراف بالصندوق، شعر بإحساس الأب الذي ولد له الطفل الأول وهو يتجه للسجل المدني ليستخرج له شهادة الميلاد، يعطيه السم، الهوية والاعتراف الشرعي به من قبل الدولة كمواطن جديد، مستهلك سيدعم عجلة الاقتصاد من اليوم الأول... أطنان من الحفاضات ومراهم التسلخ، حليب الأطفال، الألعاب، الملابس، المضادات الحيوية... سيستهلك الكثير قبل أن يدخل سوق العمل...

الصندوق بالنسبة له هو طفله الأول، سعادة لا توصف تتملكه وهو مازال يبحث عن الاسم المناسب، بينما تسرع خطواته لتعبر شوارع المدينة الموحلة... يخرج رويداً من الحارات القديمة ويقف منتظراً إمكانية عبور الشارع دون أن تدهسه السيارات الشرسة التي تلتهم الطرق الإسفلتية...

يقف أمام مبنى قديم... قذر ومهترئ، تعلوه لافتة سوداء متسخة بغبار السنوات كتب عليها اسم وزارة ما، اسم الدولة بدهان أبيض لكنه يختبئ خلف عشوائية من الكابلات الكهربائية... دائرة السجل المدني، كان النص الوحيد الممكن قراءته ضمن شغب الكابلات، ابتسم:

- لو كان صبي كنت سميته تحسين وسجلته هون.

ينعطف في زقاق يسمى بسوق الكهرباء... أسلاك، أدوات، أجهزة إنارة... محلات يعرف أصحابها منذ شبابه... تتسع ابتسامته لتحتوي المحلات وبضاعتها في زاوية صغيرة

- انتظروا، مستقبلكم سيكون مختلفاً... ستبيعون الزهور عما قريب.

رائحة سمن نافذة تنبعث من محل حلويات، يفترض أنه الأفضل في دمشق... لكن رائحة السمن العربي الخارجة من نوافذ القبو المحاذية للرصيف تكاد تصيبه بالإغماء... ضجيج القرع على أسطوانات الغاز التي يتم إدخالها بالعشرات لمعمل الحلويات يزيد من انزعاجه... يربت على الصندوق في جيبه...

- عما قريب لن نحتاج لأسطوانات الغاز هذه، ستتخلص المدينة من ضوضاء القرع على الأسطوانات... سيصبح الزقاق أجمل، الرائحة لن يستطيع صندوقي تغييرها... لكن الطاقة البديلة... تقبع في جيبي...

النفط الذي تشكل منذ ملايين السنين، الغابات التي دفنت وتحولت لفحم حجري، الأحياء الدقيقة والكائنات التي صارت غازاً... كلها جمعت طاقتها من الشمس.

بالتمثيل الضوئي كانت الكائنات تستمد الطاقة من النور، تخزنها على شكل مواد سكرية، بطاريات مؤقتة تحتوي الطاقة، ويتم إطلاق هذه الطاقة بتحليل المواد لعناصرها الأولية، الكربون المكون الأساسي للأحياء ما هو إلا وحدة لتخزين هذه الطاقة... كما هو في صندوقي...

الأشكال الأكثر تطوراً من الكائنات، ولعجزها على امتصاص الطاقة من النور، عمدت لسرقة الطاقة التي تحتاجها من النباتات القادرة على جمعها... الحيوانات كلها أكثر بدائية وأقل تطوراً من أي نبتة تجمع طاقتها من النور، نحن طفيليات تقتات على سرقة الطاقة من أصحابها... والبعض يتغذى على لصوص أخرين... الحيوانات اللاحمة عوضت عن فشلها في استخلاص الطاقة بسرقتها ممن استخلصها أو ممن سرقها... تركيب عجيب...

الإنسان قمة الهرم بالصدفة وليس بالجدارة... لكونه الكائن الأول الذي استطاع السيطرة على الطاقة، النار كانت الخطوة الأولى... استخلاص الطاقة وإعادة إنتاجها هو التطور الأهم الذي عرفناه كجنس بشري، وله ندين بتفوقنا كنوع... لو لم نتمكن من ذلك لكنا لا نختلف كثيراً عن بقية الكائنات، جزء من السلسلة الغذائية لكائنات أقوى، جامعات للطاقة ومصدر لها.

الضوء هو مصدر الحياة... ليس الماء... الماء كبقية العناصر لا يشكل الحياة... يشكل الأجساد، بضعفها وأرضيتها، إمكانية موتها وفنائها لأي سبب تافه، زلزال، بركان، وباء، مجاعة، حرب.... الطاقة التي لا تفنى هي الحياة، الروح كما تسمى... الأصح لو أنه قال "وجعلنا من النور كل شيء حي" أما الماء... فهو لا شيء.

في العقيدة الإسلامية نعلم أنه خلقنا من طين، وخلق الملائكة من نور والجان من مارج من نار، لم يخطر بباله يوماً أنه سيقرأ حديثاً نسب لعائشة بهذا التمحيص، كان موضوع الإله لا يشغله أبداً قبل اكتشافه للشكث، وقبل وصوله للتطبيقات العملية لهذا الكشف...

اليوم، النور يلعب دوراً هاماً في كل شيء، الفكر الديني يعتبر أن الإيمان بالملائكة والرسل والجان أمر واجب... إنكار وجود الجان يخرج من الملة إسلامياً، التمييز الغريب في الحديث المنسوب لعائشة بين النور والنار، الملائكة والجان... بينما يبقى الإنسان من صلصال وماء مهين... عديم الطاقة، طفيلي على باقي الكائنات، حتى في الجنة كان آدم طفيلياً على الله، مستهلك فقط، غير قادر على الإنتاج... ربما كان هذا هو السبب فوراء فرض العبادات، إن لم نكن كالملائكة طاقة صرفة، أو كالجان... طاقة مدمرة... فقط طين... فالأجدر بالخالق أن يوجد معنى لوجودنا، وإلا سنكون بيضة القبان... لا داعي أو ضرورة لوجودنا، اللهم إلا كجزء من السلسلة الغذائية لحيوانات أكبر....

إسلامياً... الله خلق الأنس والجن ليعبدوه، على الأقل هناك داع أو مبرر وظيفي لوجودنا.

عندما غادر بلده ليكمل اختصاصه في الطب، كان هاجس العودة هو المسيطر عليه... سأعود وافتتح عيادة في حي راق، طبيب مختص من ألمانيا سيكون له فرص جيدة لتأسيس شيء جيد في دمشق.

تمر الأيام وينهي الاختصاص، تبتلعه الحياة بكافة تفاصيلها، الزوجة، الأطفال، العمل... هي الحياة التي تجري...

كان يحس بأن العمر الذي مر هو مرحلة تأسيس، هناك دوماً حلم العودة... الوطن، بيت الطفولة، الحي، القرية... صداقات وذكريات أيام الشباب.

- من يعتقد أن المال يجلب السعادة عليه أن يرث أبي، لم أشعر لثانية واحدة بالسعادة للميراث الذي تركه لي، الأموال التي تركها أتعبتني للحصول عليها... أنا لست بحاجة لها، لم أحزن يوم وفاته، علاقتنا كانت علاقة صداقة، معرفة... لكنها كانت غير أبوية أبداً....

كم مر من الوقت حتى الآن، يقارب ربع قرن منذ خروجه، الزيارات سابقاً للوطن كانت فرصته للقاء الأحبة، كانت تعينه على الاستمرار، دونها كان سيشعر بالغربة.

- عندما تسوء الأمور في ألمانيا سأتقاعد مبكراً، العائد سيؤمن لي حياة ممتازة في دمشق، حققت لأولادي ما لم يحققه أبي لي، لا أعلم أي من متع الحياة أفتقد... كلها ربما.

كان ينظر للمرآة في عيادته، يغسل أيديه بالمطهرات ويفرك الأصابع بروتين طبيب، نظرة الوجوم التي كان يتسم بها عندما يفكر، كانت تخترق المرآة متجاهلة الشيب الذي غزا الرأس بكامله...

- أشعر بالرعب في ألمانيا، مصلحة الضرائب تلاحقني بسبب الإرث الذي لم يجلب لي سوى العذاب حتى الآن، هذه الأفكار التي كانت تعبر خاطره كانت منطقية، عقلانية وشديدة البرودة...

الأمر ليس كذلك في الليل... تأتي الأفكار بسوداوية أكبر، الرعب يسيطر عليه، نوبات من الخوف تنفضه من النوم... ينزل الدرج من غرفة نومه للمطبخ، يعد كوباً من الشاي، يبتلع حبوباً يفترض أنها ستهدئ من قلقه غير المبرر، مثبطات إحباط... حبوب كثيرة يعرف تأثيراتها الجانبية وفوائدها،

- نصف العمر الدوائي يضمن أنها لن تؤثر في الغد عندما سأضطر لقيادة السيارة...

بدأت المشاكل منذ عام، عندما قام موظف في بنك سويسري ببيع قرص ليزري للحكومة الألمانية يحتوي أسماء وحسابات مواطنين ألمان لهم حسابات مصرفية في سويسرا...

دستورياً وقانونياً كان هناك نقاشات طويلة حول مشروعية استخدام المعلومات، صراع سياسي بين الأحزاب قبل الانتخابات، القرص الذي اشترته الحكومة يحتوي معلومات ستسمح لمصلحة الضرائب ملاحقة عشرات الآلاف من المواطنين، التدقيق في كشوفاتهم الضريبية، تشليحهم ما أمكن لصالح الخزانة...

عندما يتعلق الأمر بالضرائب، ينتفي أي شكل للتسامح في ألمانيا، خط أحمر ليس فقط بالنسبة للسلطات القضائية، بل حتى على مستوى الشارع، الشارع الذي زاده وداع المارك واستقبال اليورو فقراً، شكل من أشكال الحقد الطبقي الدفين، يفني أي إمكانية للتعاطف معك... فأنت متهرب ضريبياً بينما أنا أدفع، لكن الأسوأ .... أنت غني.

سبعة أشهر مرت منذ اقتحمت دورية الضرائب، المنزل والعيادة.... كان المنظر مخيفاً، تشعر بأنك مجرم حرب، قاتل، مغتصب أطفال... لا يختلف الرعب الذي يسببه دخولهم في بلاد الحرية عن رعب هجوم أي دورية مخابرات في الوطن.

- يفترض أن أكون سعيداً، لست كذلك.... البديل السابق لحياتي في ألمانيا انتهى، الحلم بأنني سأغادر هذه البلاد يوماً وأعود لسوريا لم يعد ممكناً.... الخوف من عواقب الإرث الثقيل، الخوف من تفسيرات مصلحة الضرائب لدوافعي ولمصدر الأموال... الرعب من المجهول ومن المفاجئات التي يحملها ساعي البريد يومياً ... حبة أخرى صفراء، يفترض أن تثبط القلق والتوتر وتسمح لي بالنوم، أريد متابعة الكابوس الذي تركته.

كما كانت سوريا الوطن للملايين الذين اضطروا للرحيل، كانت الوطن البديل لمئات الآلاف من الذين رحلوا، كانت المكان الذي يمكن العودة إليه يوماً... الخطة ب ... اليوم صارت العودة صعبة، وهي تزداد استحالة كل يوم.

الله قضية مؤجلة حالياً، الفقد الذي عانيت منذ طفولتي، اليتم، القهر، العيش في ظل نظام يقدس البسطار، المرأة... حنان الأم... السخرية من الكون.

كلها كانت مكونات رسمت شخصيته...

بالهروب من قمع السلطة، من انعدام الفرص لعيش كريم في ظل نظام يرفض لك العيش الكريم إن لم تكن جزءاً منه، كان الرحيل الأول... العثور على وطن بديل... على هوية جديدة.

في مشيخة نفطية يعيش مازن اليوم، السنوات التي قضاها في الغرب ساعدت بترميم الفجوات في سيرته الذاتية، علمياً أصبح لدية أوراق يمكن الاعتراف بها في صحراء إسمنتية تعتبر الماخور الأكبر على ضفاف الخليج... لكن الشهادة الأهم التي سهلت حصوله على عمل جيد، كانت شهادة منح الجنسية، الخليج يعاني منذ فورته من عقدة الخواجة، عقدة تزداد كلما ازددنا فخراً بعروبتنا.

الهروب من القمع الذي لم يمسه بشكل مباشر، الرغبة في إيجاد عيش أفضل والبحث عن معنى للحياة، بحث يتنقل من صفحات الإنترنت للسراويل الداخلية للخادمات والمربيات،

متعة الجنس متعة غريبة... هناك نوع من الهوس الجنسي بالتفاصيل والدقائق، البعض يحول هذا الهوس "الفيتيشي" لأجزاء من الجسد، أو لأجزاء من اللباس... والبعض يتحول هذا "الفيتيش" عنده لشكل معين من العلاقة.

كان لنا صديق صائغ يعيش في بحبوحة الثراء الدمشقي، اعتاد ارتياد النوادي الليلية في دمشق، حيث تتواجد فنانات روسيات يؤدين بعض الرقصات ثم يشربن كأساً غالية الثمن مع الخروف الأول الذي يعرض عليهم، "الأنغاجيه" هي تسمية هذا الطقس...

أخبرني مرة قواد أصلع في "الكاف دو روا" في دمشق "كهف الملوك"... عندما دعيت فتاة شقراء للغاية لتجلس معي ومع ضيوفي، وبدأت بالنقاش معها عن بلادها وعائلتها... أخبرني أن هناك آداب للأنغاجيه يجب احترامها؛
أولاً كأس المشروب وثانياً لا حديث في الأمور الشخصية، وتاسعاً كل نصف ساعة كأس جديد، حتى لو أن الشقراء لم تشرب الكأس الأول...

الصائغ أدمن هذا الطقس، كانت الأمسية تنتهي في الثالثة صباحاً، حيث تنقل الفتيات لفندق محروس بشكل جيد، محروس من القوادين ومن الدولة التي كانت تمنع الفتيات من الخروج حتى الساعة الرابعة بعد الظهر...
الأمسية كانت تبدأ من الخامسة للتاسعة مساءاً... هي وقت الحرية للفتيات حيث يلتقين بزبائن يحاولون الحصول على شيء أكثر مما يقدمه النادي الليلي... التودد للروسيات يتم بالهدايا والعطور، بالنسبة للصائغ كانت الهدايا من المعدن الثمين، وكان الغنج والدلال الذي تمارسه الشقراء جزء من "الفيتيش" المرغوب، شهور تنقضي وينال صاحبنا قبلة، وعندما يتحقق المراد تكون الشقراء قد كلفته ثروة طائلة، حسب زعم شريكه أنه كان يتقزز من الفتيات اللواتي يمكن الحصول عليهم

بسهولة، كانت فكرة الاصطياد والنجاح بإيقاع الروسية في حبه تمثل قمة الإثارة الجنسية، حقيقة أن الفتاة منذ البداية كانت سترضى بالممارسة مقابل جزء بسيط من التكلفة الإجمالية، كانت مرفوضة بالنسبة له... على زعم شريكه أنه كان لا ينتصب إلا إذا أحس بأن الفتاة "تُخَورفه".

بالنسبة لمازن صار هناك نوع مختلف من "الفيتيش المازوخي" يلازمه، نوع من التعاطف مع مجتمع طبقة الخدم،

في دبي أنت تعيش مجتمع طبقي، غيتوات بالعشرات، غيتو الأثرياء، غيتو للثوار، غيتو أخر للمثقفين، غيتو خاص بالمدراء... لكن الغيتو الأهم والأكبر هو غيتو الخدم، يعيش في شقق متواضعة، يعمل على توفير أي قرش لسد ديون سببها الفقر المزمن، أو كلفة التأشيرة... عائلة مترامية الأطراف تحتاج للمساعدة، أزواج وأطفال يعيشون على ما يأتيهم ممن يسمون هنا بالعمالة الوافدة.

الخلود، الحياة بعد الموت.... من كان ذاك الذي اعتبر أن الحمض النووي "دي إن أي" الذي يحمل الصفات الجينية وينقل بعض مواصفاتك لنسلك هو الخلود الموعود...؟ البقاء بعد الموت والحياة الأخرى لا يمكن تفسيرها اليوم إلا بهذا الشكل...

- ورد في صحيح مسلم حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له.

موضوع صدقة جارية مؤجل حالياً، أما علم ينتفع به فهذا هو ما يسعى إليه الآن، نشر المعرفة والثقافة... بأي شكل كان... هو الإرث الذي سيذكر به... أما الإنجاب وولد صالح، فهو مقتنع الآن بأهمية توزيع حامضه النووي على نساء العالم، حقن هذه الموروثات قضية لا جدل فيها...

رغم هذه القناعة إلا أن رعباً غامضاً خفياً يدفعه للوقاية.... رعب مصدره تراث إسلامي وعقبات تفرضها قيود اجتماعية ومسؤوليات قانونية، وزوجة تماثل في عقليتها رجالات الأمن كل هذا يدفعه لاتخاذ تدابير واقية أثناء القيام بالمهمة، أو بعدها.

لم يتخذ موقفه بعد من الله، قضية مؤجلة هو...

المعاناة من وسط متدين هو العمل، ومن تراث شرقي يفرض الله على الحياة.... هذه المعاناة هي سبب التقية التي يمارسها، الدافع لاستخدام عبارات تعكس الثقافة الشرق أوسطية التي يتمتع بها...

الاستلاب الديني يغزو البيت، الزوجة التي تتنازعها تناقضات لا تمس شخصيتها بل هي ببساطة شخصيتها تقرر ارتداء الحجاب... هذا القرار شكل الصدمة الثانية في حياته....

الصدمة الأولى كانت باكتشاف المرض العضال، يمكنه التعايش معه باتخاذ تدابير الحيطة والحذر وتناول جرعات دواء لا تشفي المرض بل تحد من تطوره...
كذا هي العلاقة الزوجية... الردة الدينية "المودرن" التي أصابت الفاضلة زوجته لا تختلف كثيراً، يمكن التعايش معها باتخاذ تدابير الحيطة والحذر.

قضية مؤجلة... كموضوع الله، يمكن التفكير فيها فيما بعد.

نزار الخارج من عزلته الطويلة يعيد اكتشاف المدينة، في طريقه لتسجيل الاختراع تتقاذفه الوزارات والدوائر الرسمية، يقرر منح نفسه استراحة مستحقة... يدخل المقهى الذي صار يعرف بمقهى المثقفين، يشعر برعب... فتيات بثياب جميلة يجلسن، يتضاحكن... أحاديث جدية تتخلل الضحكات البريئة التي تنطلق من بعضهن وضحكات أقل براءة تنطلق من الأخريات، يشعر بدوار غريب،

في هذا المقهى كان يجلس مع عبود.... سنوات تفصل اليوم عن ذاك اليوم، ما الذي جرى... كان مقهى الروضة مكاناً ذكورياً بامتياز، الدخول كان حصري على المثقفين ومشاريع الشعراء، عساكر يقتلون ما تبقى من وقت الإجازة، للاعبي شطرنج تعوض الساعة التي يتوالون صفعها عن مهاراتهم الشطرنجية ويوحي تركيزهم وتبادل إيقاف التوقيت بينهم بقدرات كاسباروفية للناظر من خارج الجو، دخان سحبه ترافقها صيحات وطلبات لشاي أو لقهوة، رائحة دخان العجمي تمتزج برائحة جوارب مثقفين يلتمع الزيت المغطي لشعورهم فيحار الناظر إن كان هو قذارة بوهيمية اعتيادية، أم منتج طبيعي للعبقريات التي تختبئ في جماجمهم الصغيرة المحشوة بالترثرات... كراسي خشبية يندر أن يكون قش أحدها كاملاً لا تخترقه ثقوب نسقت بعناية لتسمح لبعض من جسده بالتدلي.

اليوم اختلف المشهد شلل الصبايا والشباب في المقهى تضيف روائح عطور، بارفانات نسائية، شباب شعورهم تلتمع لا من الزيت الثقافي البوهيمي كما كانت في ماض قريب، بل بمواد هلامية تجعلها تلتمع كما لو أنها غسلت للتو، وتجعل ملمسها كظهر قنفذ... روائح التنباك العجمي اختفت تماماً وحل مكانها دخان المعسل بنكهات مختلفة، تفاح... كرز... وفواكه أخرى.

جلس بالصدفة المتعمدة قرب مجموعة من الفتيات، ظهره لزاوية البوفيه التي تنتصب فيها أراكيل جاهزة للتوزيع، ويحج إليها الكراسين وصوان نحاسية تنقل الطلبات للزبائن، حاول أن يبدو طبيعياً وأن يخفض دقات قلبه التي بدأت بالتسارع وهو يلاحظ الفرق بين هذه الوجوه الشابة التي تجلس على يساره وبين الصورة التي شاهدها في مرآته هذا الصباح.

- قهوة سكر زيادة وباكيت دخان لو سمحت... "طلب من الكرسون بتهذيب".
- شو الدخان استاز؟
- حمرا طويلة... شرق... ططلي.... شو عندك..؟ "قالها وهو يرتعد من صدى ضحكات خافتة انبثقت من المنضدة التي على يساره، طاولة الشلة التي يفوق عدد نسائها عدد شبابها"
- ما في غير أجنبي استاز: جتان، لووكي، بولمول، مار بورو...
- لوكي
- شو من زمان مبطل التدخين؟ "سأله الشاب الوحيد الذي شعر بالتعاطف معه من طاولة الصبايا"
- أيه شلون عرفت؟؟؟
- أبي كان يدخن ططلي سرت غليظة، الله يرحمو عطاك عمره من عشر سنين... من يومها ما سمعت كلمة ططلي من حدا.
- أي صار لي زمان بعيد عن ها الأجواء.... كنت مسافر.

يبدو أن هذا الحوار أو ربما السفر المفترض قد حفزا جيرانه للتواصل معه، صبية منهن تنبعث منها رائحة عطر كادت تصيبه بالإغماء، كونه لم يشتم مثيلاً لها منذ سنوات، تدخلت في الحديث... ابتسامتها الساحرة والنظرة الذكية من خلف عدسات نظارة طبية رقيقة سحباه لحلم جميل بالتواصل مع الأنثى.... حلم طالما راوده خلال السنوات السابقة.

- وين كنت مسافر عمو؟

مزيج من الشرود الذي يتسم به العلماء، والحزن الذي يصيب الرجال عندما تخاطبهم فتاة كان عقلهم الباطن على وشك تعريتها بتسمية "عم"، والضياع الذي هو الصفة الغالبة لجيله.... أجابها:

- كنت بعالم تاني، بعيد عن عالمكم هذا.

تحول الكهل المتصابي بالنسبة للشلة ليصبح محور اهتمام، وارد جديد على المقهى، شكله لا يوحي بأنه من رجال الأمن الذين كثر عددهم في الأشهر الأخيرة منذ بدء الأحداث، رغم أن خصل الشعر التي تحاول تغطية صلعته تجعله يتشابه مع العديد من عناصر المخابرات... وبالذات فصيلة المساعدين المتطوعين.

- الحمد الله عا السلامة، "قالتها ماريا التي زاد فضولها لتعلم أكثر عن هذا الوافد الجديد للمقهى".

المشاعر بالنسبة للجيل الشاب الذي كان خليطاً من طلبة، فنانين، نشطاء، وعاطلين... كانت متضاربة، الغالبية أرادت رحيله بسرعة ليعودوا للحديث عن الحراك وعن غياث مطر وعن أخر إبداعات مجموعة نفوس كرام التي أرعبت النظام وأثارت حنقه؛ بتعليق دمية ثنائية الأبعاد لبشار مشنوقاً من على الجسر الذي يحمل اسم أبيه...
بينما كان البعض وماريا منهم يرغبون بفضول طفولي معرفة المزيد عنه، عالم أخر؟؟؟ ربما كان سجيناً سياسياً سابقاً خرج لتوه من المعتقل، بعد حملة الإفراجات التي أُجْبِر النظام على القيام بها بسبب الضغط الدولي المؤيد للحراك، ربما كان ممنوعاً من دخول البلد وسمح له مؤخراً بالعودة... معرفة موقفه من الحراك هي الهدف الأول الآن لتقييم إن كان بالإمكان التواصل معه، أو الأجدر الابتعاد عنه ككلب أجرب.

- الله يسلمك، أنا ما دخلت لقهوة الروضة من عشرين سنة... عفواً ما قصدي شي سيء... بس الوضع تغير كتير ها الأيام... عا طاولتكم هي، كان بالعادة يقعدوا الشوايا... جيل الشباب بالقهوة كان نادر، والبنات... ما كان في... غير بياعة الدخان أم الفيلد الكحلي وشحادة نورية والقطط اللي بتنطوط بين الطاولات ما عداهن ما كان في أي تواجد للأنثى بها القهوة.

- وللليييبي صار لك زمان مسافر؟؟؟

"صفرت ماريا التي كما يبدو قد أصبحت الممثل الرسمي للمجموعة... والمخولة لاكتشاف خبايا القادم الغريب... ثم مدت يدها مشيرة لأصدقائها".

- سامر، مها، سوسن، جميلة، رشا، ناديا، أليسار.... وأنا ماريا "هكذا قدمت الناطقة الرسمية باسم جيل الشباب المجموعة بسرعة وود".

- أنا نزار.
- هلا نزار، وأنت مندس وللا مواطن شريف؟
- آآآآ ما فهمت؟؟؟؟

ضحكات المجموعة أنقذته من الإجابة عن التساؤل الذي لم يفهمه، وصيحات الصبايا: "العمى بعيونك يا ماريا شو وقحة... اتركيه بحاله... طولي بالك شوي عا الزلمة..."

وكما أنه لم يحفظ من أسماء الشلة سوى اسم ماريا، فإنه تجاهل الوابل من الانتقادات التي رميت به ماريا من قبل الشلة وأعاد بإصرار:

- عن جد ما فهمت سؤالك.
- ايمتى تفرجت عا التلفزيون أخر مرة؟
- ما بذكر... ما عندي تلفزيون، ولا راديو... أنا شوي منعزل عن العالم، عندي بحث صار لي وقت عم بشتغل فيه.
- أوك... عرف السبب بطل العجب، بس غريب... ما بتقرا أخبار، عا الأنترنت؟؟؟ للبحث تبعك ما بتدخل عا الغوغل؟؟؟
- لا أنا ما عندي كومبيوتر.
- بحث شو هادا اللي بلا كومبيوتر؟
- شي عن الطاقة، والتطور....
- ولي عا ها المصيبة، طلع عالم. "الضحكات التي رافقت إهانة ماريا، حولتها من سخرية مرة لنوع من الغزل الذي كان يتمناه دائماً"

كان الاهتمام الذي أثاره وجوده المفاجئ قد بدأ بالتلاشي ليصبح جزء من المكان، حميمية غريبة عنه كانت تشع بين أفراد الشلة التي بدأت بتقبله واعتباره جزء من مكونات هذا الشعب الذي يقومون بالنيابة عنه بالثورة.... دفعت أليسار حساب الشلة للكرسون مع بقشيش محترم، ثم توجهت لنزار بالكلام

- دكتور حسابك خالص
- لأ لأ .... ما بيصيرر.....

ارتبك وهو يدس يده في جيوبه محاولاً إخراج محفظته، امتدت يد ماريا لتمسك يده... توقف بحثه عن محفظته بنفس السرعة التي كادت لمستها أن توقف بها قلبه عن النبض.

- اتركها تدفع، هي زنغيلة... أبوها شغلة كبيرة، برجوازية مو بإيدها....
- المرة الجاية والله لأدفع عن الكل إلا عنك يا بنت الهيك وهيك ...

"تفرق الجمع ولم يبق من الشلة بعد وداعهم لبعض إلا ماريا وسامر يكملان تدخين الأركيلة استدارت ماريا لتواجه نزار الذي شعر وللمرة الأولى أنه عاد به الزمان لأيام الشباب.

- أي بئا نزار أفندي، بدك تحكي لي عن ها البحث وشو ممكن يقدم للناس، البحث اللي خلاك تنسى هم الناس وما تشوف شو اللي عم يصير حواليك.

كان سؤال ماريا فاتحة لنزار للتساؤل عن الذي حدث بينما هو منشغل بالصندوق، صغائر الحياة التي كانت تمر بينما هو يصنع التاريخ.

تساؤلات حقيقية بدأت تعيده لواقع تجاهله طيلة عقدين من الزمن، كطفل يستمع لحكايات مدرسيه كان يستمع للشباب، يرمم ما فاته من أحداث.

تمر الأيام ببطء شديد، يومياً تمر مئات الوجوه أمامه وهو يحاول التصالح مع الجميع، تنازلات كثيرة عليك تقديمها لتكون منتمياً لهذا الخليط العجيب الذي اسمه المجتمع.

انتهى من اجتماع العمل الذي جمعه مع ممثلين لشركات منافسة، سار مع فوزي عائداً للمكتب، العمل هو الوسيلة الحالية للحصول على الراتب، انتهت الأيام التي كان يعشق فيها عمله، تحول الهيام والعشق الذي حملته أيام الشباب التي تتسرب من بين أصابعه للنجاح إلى ذكرى للماضي.

كان شرطي المرور يحمل عصاه وينظم السير، بينما تجمع عدد ضئيل من الأشخاص أمام مدخل فندق السميراميس، عصا الشرطي كانت امتداد للساعد الأيسر، استطالة تمتد لتمنعه مع الجموع من عبور الشارع رغم الإشارة الخضراء التي تثبت حقه في العبور، بينما البشرطي يصفر صفرات متلاحقة ويأمر السيارات بالعبور بحركة من اليد اليمنى التي يخفي قفاز أبيض متسخ أصابعها النحيلة.

- شو يا معلم، الإشارة خضرا إلنا... شايفك عم تاكل حقنا بتقطيع الشارع، الإشارة خضرا... "قالها زياد الذي مازال منتشياً بكأس الويسكي الأخير الذي اختتم به غذاء العمل".
- ما تواخذني، لازم نخفف ضغط الإزدحام عن الساحة.
- يعني عجبك هيك... نعمل لك مظاهرة هلأ ....
- هي وزارة الداخلية بأخر الشارع، روح جيب ترخيص وتعا عميل مظاهرة... "قال الشرطي الذي تنم لهجته عن لكنة ديرية وهو يحاول إخفاء الابتسامة"
- لأ ها المرة سماح، يس لا بئا تعيدوها...
- أمرك...
- بتعرف يا معلم أننا شعب أخو محلوشة، من سنة واحدة بس، ما كان فيني أحكي معك بها الشكل...
- سبحان اللي بيغير وما بيتغير.

أوقف الشرطي سير السيارات وابتسم له منحنياً برشاقة، ماداً يده اليمنى بحركة مسرحية يدعو المشاة لعبور الشارع، ابتسم زياد وعبر الشارع مع صديقه الكويتي فوزي، الذي كان يختصر خشيته من الأيام القادمة بجملة "الله يستر هاذي البلد من الأيام الجاية، زلمتكم ما عرف يتصرف بخطابه الأخير... كان لازم يكون التصرف غير شي...".

على الرصيف تحت الجسر انتشرت بسطات عشوائية بالقرب من بقع على أعمدة الجسر، رائحة النشادر تكاد تختفي بسبب غازات عادم السيارات التي زادتها السحب السوداء المنبعثة من الميكروباصات كثافة، التلوث في دمشق، يمكن رؤيته، شمه، تذوقه بل حتى كان يشعر بأنه قادر على الإمساك به.

على زاوية الشارع الصاعد باتجاه ساحة المحافظة، كانت بوسترات لفنانين ومطربين تنتشر على واجهة دكان مغلق منذ عقود، الصورة الأهم التي تحتل المشهد هي صورة نبيلة عبيد، تضم يديها على صدرها وتغطي الأصابع ببراعة مذهلة ما داعب مخيلته ومخيلة جيل سبقه وأجيال لحقت به، ربما كان الانتشار الأوسع لهذه الصورة على جدران باصات الهوب هوب التي كان يستقلها أثناء تأديته للخدمة العسكرية ليصل لقطعته، الصورة الأكثر مبيعاً في سوريا والأكثر انتشاراً بعد صورة القائد الرمز... صورة تتسع فيها المساحة العارية من الصدر الرمادي الأبيض... اتساع يفوق اتساع جبهة القائد الملهم ويبقى في ذاكرة الأجيال مرتبط بذكريات أجمل.

- هذا الحراك كان لازم يتم التعامل معه بشكل مختلف، هو الدكتور خوش إنسان مثقف، لكن اللي حواليه ما ينصحونه وايد.
- أي هو السيد الرئيس منيح، بس اللي حواليه عرصات.... "قال الجملة بصوت عال دون خشية اللوم، حيث أن هذا الاقتباس سبق له أن سمعه من أحد عناصر الأمن، اقتباس يفترض به تحليل الحراك وشرعنة المطالب وتنزيه الرئيس عن الخطأ، وبالوقت نفسه توجيه أصابع الاتهام لأحد ما"
- هذا رأيك؟
- بصراحة تريد أن تعرف رأيي؟
- يهمني أعرف بشنو تفكر الحين.
- والله القضية الأهم التي تشغلني اليوم، هي: من الأهم في تاريخ أمتنا، من الأهم... والأكثر تأثيراً على الجماهير
- تقصد عبد الناصر أم... الرئيس المرحوم....؟
- لا... لا..... نبيلة عبيد أم ناديا الجندي.
- أنت ماكو أمل منك... "ابتسم فوزي وحث السير للعودة لمكتبه وهو يحاول اكتشاف المقصود من هذه المقارنة".

الحقيقة أن المقارنة لم تكن للسخرية، منذ أشهر وهو محتار في الشخصيتين، معبودة الجماهير ونجمة مصر الأولى... كل منهن لها نكهة خاصة، نبرة الصوت، البراعة في الرقص الشرقي... الإغراء الشرقي للمرأة الذي تفتقده نساء العالم، كل هذا أوصله للقناعة بصدق مقولة: مصر أم الدنيا.

هذا الخلاف الفقهي، يماثل كل خلافاتنا العقائدية الأخرى، إلا أنه أكثر تسامحاً منها... بالرغم من كوني من عشاق نجمة مصر الأولى، والمعجبين بفنها، والمقدسين لرقصها... تابعت كافة أعمالها... وأحلم بها وأرى في أجساد صديقاتي ملامح شبه تقربهم منها، إلا أنني وبكل أريحية لا أنكر اهتمامي بالنتاج الفني الخالد لمعبودة الجماهير.

بينما لا تجد سنياً يستشهد بنهج البلاغة، شيعياً يتكلم عن عدل عمر، حطينياً أو زملكاوياً يتحدث عن هدف لتشرين أو الأهلي، أو ثورياً يقبل موقف أدونيس... بينما أنا كمعجب بنجمة مصر الأولى أشاهد فيلماً لمعبودة الجماهير وأستمتع به...

- ربما نحن أكثر ديمقراطية من غيرنا.

لا يذكر زياد إن كان قد أخبر صديقه فوزي بكامل نظريته عن التحزب والتعصب، أم أن الجملة الأخيرة هي الوحيدة التي خرجت من بين شفتيه.... الكويتي نظر للأفق مؤيداً الجملة الأخيرة.

غادر سامر وماريا المقهى برفقة نزار، يشعران بألفة غريبة تجاه هذا القادم من عصر أخر، كائن فضائي هو بالنسبة لهما، جيله عاش في عزلة عما يمر بالبلد من أحداث، بالنسبة لماريا كان نزار يمثل تحدياً... جيل صمت طويلاً ولم يتحرك، جيل استكان وصمت متجاهلاً الظلم، جيل يمكن كسبه للحراك بسهولة... نوع من الإشفاق على الشكل العجائبي لتصفيفه لشعره، اختياره لملابسه يدل على انتفاء وجود الأنثى في حياته...

رجل لم يعرف الحب منذ زمن طويل... المشاعر التي كانت تتنازعها هي مزيج بين الناشطة التي تدعو للحراك وتوثق لأعمال التنسيقيات، وبين الأنثى التي شعرت بالرجفة التي تركتها لمستها في المقهى على هذا الذكر، التفوق الذي يؤكد للأنثى وجودها، نظرة الرجل التي تتفاوت بين الدناءة وبين الدونية.... شعورها بأنها المرغوبة... هذا الشعور الذي فشلت في إيقاظه لدى سامر الذي لا يرى فيها الأنثى بل الناشطة.

بالنسبة لسامر فإن نزار هو مجرد شخص خامل، عديم النفع للحراك، واحد من الملايين الذين سيستفيدون من التغيير الذي سيأتيهم على يديه... الثورة التي يساهم هو بصنعها، شخص لا أهمية لوجوده لأنه يعيش في ماض متخلف...

- عن جد أستاذ نزار ما عندك حساب على الفيس؟ "يسأل سامر باستفزاز"
- ولا حساب بنك.

تضحك ماريا من استفزاز سامر لنزار، تتمنى أن يكون سببه نوع من الغيرة من نظرات نزار لها.

بالوصول إلى مكتب التسجيل اكتشفت المجموعة أنها اختارت اليوم غير المناسب، الموظف على باب مكتب الاستعلامات كان غاية في اللطف، شرح لنزار الوثائق المطلوبة لتسجيل الاختراع... لكن عليه تقديمها بين الساعة العاشرة والثانية عشر الأسبوع القادم، حيث أنه في الغد لا يوجد أي موظف يمكنه استلام الطلب، الجميع سيشاركون بمظاهرة مؤيدة عفوية.

زاغت عينا نزار وهو ينظر للأوراق المطلوبة:

1. خمس نسخ ورقية باللغة العربية للوصف الفني.
   - طابع مالي (قيمة كل طابع 10 ل.س)
   - يلصق على 3 نسخ منها (7 طوابع لكل نسخة)
   - يتم التوقيع على كافة الصفحات وعلى كافة النسخ.
   - يتم ترقيم كافة الصفحات .
   - ثلاث نسخ ورقية مترجمة للوصف الفني باللغة الإنكليزية أو الفرنسية.

ويتم التوقيع على كافة الصفحات وللنسخ كافة، ويكتب عليها تمت الترجمة بمعرفتي وعلى مسؤوليتي إذا لم تكن الترجمة عن طريق ترجمان محلف، وإذا كانت الترجمة عن طريق ترجمان محلف يوضع ختم الترجمان.

2. نسخة إلكترونية على C D للوصف الفني باللغتين (عربي) و(إنكليزي أو فرنسي).
3. صورة عن الهوية الشخصية.
4. إضبارة (يحصل عليها المخترع من مديرية الحماية مبنى وزارة الاقتصاد).

5. إيصال مالي /275 / ل. س يؤخذ من دائرة البراءات ويدفع في مبنى وزارة الاقتصاد.
6. أجور دراسة /1000/ل.س يؤخذ ويدفع في مبنى وزارة الاقتصاد.
7. طلب استمارة من دائرة البراءات يلصق عليه طابع مالي /10/ ل.س.
8. تعهد خطي يوقع شخصياً لدى دائرة البراءات يلصق عليه طابع مالي /10/ ل.س

- تقدم مجموعة الأوراق المطلوبة ضمن الإضبارة على الشكل و الترتيب التالي :

1. وثيقة الإضبارة
2. طلب الاستمارة
3. التعهد الخطي
4. صورة الهوية
5. إيصال مالي/275/ ل.س
6. أجر دراسة /1000/ ل.س
7. خمس نسخ عربي
8. ثلاث نسخ مترجمة للإنكليزي أو الفرنسي

سامر وجد الروتين غاية في التعقيد بينما قالت ماريا أنه شيء طبيعي ولكن الرسوم والطوابع المالية تشكل عبئاً لا داعي له.... وحده نزار كان يسير معهما والدموع تكاد تنهمر...

- الأمر يبدو أصعب من اختراع "الشكث" نفسه.
- الشكث
- شرائح الكربون ثنائية الأبعاد....
- ما هي الفائدة الوظيفية لهذه الشرائح "سألته ماريا".
- التغيير.
- تغيير ماذا.
- كل شيء، لن تكون البشرية بعدها كما كانت قبلها.
- تعني ثورة. "قال سامر مبتسماً"
- لا الثورة هي تحطيم ما هو قائم... عملي سيطور ما هو موجود ويجعل الحياة أفضل
- إصلاح يعني... "عقبت ماريا بلهفة خفية"
- الأمور ليست بالسهولة التي تفكروا بها، لا ثورة ولا إصلاح... أنا أسميه تطور.

نظر سامر لماريا نظرة ذات معنى ثم اعتذر لأنه مضطر للذهاب للميدان، هناك اجتماع ضروري عليه أن يكون فيه، سيتم فيه رسم خطة لتطوير الحراك.... صافح نزار مودعاً، وهمس لماريا وهو يودعها: الأستاذ مؤجر الطابق العلوي، ديري بالك منه"

- سنلتقي ثانية أستاذ نزار، بعد الثورة.
- بعد التطور.

رمت ماريا حقيبتها على السرير ودخلت للحمام، كانت المياه تنهمر من الدوش على جسدها الذي كان ينتفض من برودة القطرات، الآلاف من الحبيبات الناعمة كانت تنتصب من القشعريرة التي يثيرها الماء البارد... حتى وقت قريب كانت تستحم بماء حار للغاية، منذ أزمة الكهرباء التي رافقت الحراك، القطع الكيفي غير المنتظم للكهرباء... صارت تستحم بالماء البارد، تتخيل عشرات الآلاف من البشر في أماكن مختلفة من البلاد لا يحصلون على ماء للشرب وليس للاستحمام...
تتخيل أطفال يموتون من البرد في نزوحات متفرقة... بينما جسدها يتلذذ بدفء الاستحمام، كانت روائح الصابون المعطر والشامبو تذكرها بالقذارات التي ترافق حياة من غادروا هرباً من الموت القادم في خيم ينقصها الحد الأدنى للحياة الإنسانية، منذ بداية الحراك عودت نفسها على الاستحمام بماء بارد... هو مساهمتي الفعلية للثورة... أن أشعر بالأخرين...
كانت يدها تدعك الصابون بين ثدييها الصغيرين، ثديان خجلان... لولا نفور الحلمتين البنيتين لأمكن اعتبارهما صدر رجل سمين قليلاً، أنوثتها التي لا تبدو ظاهرة للعيان بثيابها العملية تتفجر تحت مياه الدوش الباردة، اليد تدعك الصابون على زغب العانة التي ترتجف من البرودة وتنز حرارة سببها كبت يغلف مجتمع المدينة بأكمله... تتسارع حركة اليد وهي تهدف لغسل العرق والروائح التي تسببها الأنوثة المكبوتة، تنفرج الشفاه التي ترتجف من برودة الماء عن آه خافتة تنهي بها عادة دوشها اليومي...

وقفت أمام مرآة الحمام، رفعت ساقها على حافة كرسي الحمام وهي تجفف نفسها مرتجفة.... جسدها الذي بدأ يستعيد حرارته ببطء مازال مليئاً بملايين الحبيبات التي سببتها القشعريرة التي خلفها طقس الاستحمام...

للمرة الأولى لم ترى وجه سامر عندما ارتعشت لتفرغ كبتها، حب مستحيل الذي تكنه لسامر، التزامه الديني سيمنع أي تقارب يتجاوز حدود صداقة المقهى، هي تنتمي لتكتل مجتمعي أخر... تطور أي علاقة بينهما تقف في وجهه عقبات لن تذللها صداقة الدراسة أو الحراك الذي قربهما مؤخراً من بعض... اليوم عندما أتت رعشتها، كانت مختلفة... كانت للمرة الأولى بهذا الطول... فتحت عيناها للمرة الأولى وهي تنتفض... كان خيال نزار هو الذي يرافق لذتها.

عندما كانت تفرغ طاقتها سابقاً كانت ترى شكل رجل ضبابي، شكل ذكري وراء البخار الذي يبعثه الماء الدافئ... منذ بداية الاستحمام بالماء البارد صارت تغمض عينيها وتتخيل أن هذا الرجل الضبابي الذي كان سابقاً يختبئ وراء البخار هو سامر، رفيق النضال، شريك التغيير لمستقبل أفضل... اليوم اكتشفت وللمرة الأولى أن ذاك الرجل كان نزار، ربما لهذا السبب شعرت بالقرب منه في المقهى ولم يزعجها أنه غريب مجهول، بل كانت هي التي تحرشت به.

ارتدت على عجل قميصاً فضفاضاً، سروالاً ضيقاً يقيد جسدها الذي انتهى لتوه من ممارسة الدقائق المعدودة من الحرية الشخصية وخرجت لتجلس مع بقايا العائلة.

- اسم الصليب حولك، قمر والله يا روحي.
- نعيماً يا بابا، طمنيني شلون جامعتك؟

- مديحة بابا...
- بكرا لا تنزلي عا الجامعة، فيه مسيرة ومو ناقصنا وجع راس.
- لا تخاف بابا.. أنا ما بطلع بالمسيرات العفوية.
- لا مسيرات ولا غيره...! الله يرضى عليكي يا بنتي...تصبحوا على خير.

- تصبح على خير... ماريا حبيبتي.. تعشيتي؟
- أي ماما تغدينا أنا ورفقاتي متأخرين اليوم... هلأ مو جوعانة.
- صحة وهنا حبيبتي، بدي قللك شغلة ماريا بس لا تزعلي مني... بتعرفي أنا بتهمني مصلحتك وبس...
- خير ماما... أنا منيحة، وما مبينخاف عليي، ولح ضل بنت ليوم الأكليل، وبدير بالي بس اقطع الشارع، وبشرب حليباتي المسا.... شو بقيان؟
- ديري بالك من ها الرفقات يا ماما... المخابرات عم تلم شباب الجامعات عا أبو جنب.. خايفة عليكي.
- ماما سعري بسعر بقية رفقاتي، بس ادعيلي... أنا ما بقدر أوعدك بشي...
- العدرا تحميكون... كلكم.
- لا تخافي حبيبتي.

انتهى النهار بشكل عجيب، كانت تريد أن ترافق نزار لمنزله ليشرح لها أكثر عن اختراعه، لكنه تهرب منها... ستراه غداً... كانت تريد أن تفهم منه الفرق بين الثورة التي يدعوا لها سامر، الإصلاح الذي تحلم هي به... والتطور الذي أشار إليه... طريق ثالث للتغيير لا يتكلم أحد عنه... هل كان يتحدث برمزية عن الوضع، كانت هذه الأفكار هي التي تراودها عندما بدأ النوم يستلب منها حواسها ويتركها لتغرق في أحلام يتم فيها اغتصابها من قبل ثوار لحاهم طويلة، رجال أمن يتكلمون بلهجة غير محببة لسكان المدن...

تغتصب مرة تلو الأخرى، وأكثر ما كان يثير اشمئزازها هو أنها كانت تستمتع بكل اغتصاب وتستلذ بالألم الذي تتركه الصفعات على جسدها... جسدها الذي تعريه الأيدي وتقذفه من اغتصاب لأخر، كان شيخ عجوز بلحية حمراء يغتصبها باللغة العربية الفصحى ثم يرميها لعنصر أمن يعذبها ثم يخترقها بقسوة توصلها للذروة قبل أن يرميها للسلفيين ثانية...

بينما هي تنظر بعينين تمتزج فيهما الشهوة بالدموع إلى جبل قاسيون وقد نصب عليه صليب كبير، صليب علق عليه المسيح... علق شنقاً من رقبته ولم يصلب... أكليل الشوك الذي يكلل رأسه الإلهي كان من أسلاك معدنية شائكة تشابه ما بدأ يرتفع على الحواجز التي تقطع أوصال مدينتها.

استيقظت على صوت قصف عنيف، رشقات رصاص وصياح... لتجد أنها غارقة في سوائلها، عرقها الحامض يبلل الوسادة.... صراخها نبه أمها التي تركت أعمال المنزل وهرعت إليها،

- العدرا تحميكي يا ماريا..... ها الكوابيس لح تقصر عمرك يا بنتي.
- ماما المسيح مات عا الصليب أو مات شنق؟
- يا عدرا... شو ها الحكي يا بنتي... قومي يا بنتي اشربي مي وصلي.

لم يكن الوقت يسمح لها بالتبرير لأمها عن سبب صراخها الصباحي... شكل الكوابيس التي تنتابها، كوابيس سببها فكرة الله التي تؤرقها... قضية الحرية والحراك.... قضية البلد الذي يتشظى

بانتماءاته وتحزباته التي يسببها الخوف من الأخر... هذا الألم الممتزج بالآلام التي تأتيها كل شهر لتؤكد لها أنوثة لم يتح لها التأكد منها بعد...

- أسفه ماما... لست بوعيي أنا... أنا... انسي يا ماما كان كابوس.

قالت هذا بينما قامت للحمام لتغسل سوائل لزجة أغرقت جسدها وسببتها الكوابيس التي يختلط فيها الخوف من الموت بتساؤلات العقيدة، المجهول والكبت المجتمعي... لأنثى تذبل كوردة تتفتح ولا تجد من يشم رائحتها فتحلم باغتصاب ينتزعها من واقعها.

استحمت بسرعة، لم تداعب نفسها بل وقفت أمام المرآة ووضعت بعض الأصباغ على وجهها محاولة التأكيد على الأنوثة التي ظلت فترة طويلة تتجاهلها...

نزار وعدها أنه سيكون في المقهى اليوم ليطلعها على الاختراع، كانت تقفز الدرج وتحاول اختزال الوقت للوصول للمقهى... تريد أن تكون هي من ينتظره لتؤكد له اهتمامها.

انتهى الاجتماع، اصطفت الأوراق عل المكتب بترتيب حسب الأهمية... لم يبق من فريق العمل الاستشاري أحد... تناول الرزمة الأولى التي تحتوي المشاكل الأمنية، تقارير طويلة عن الانتصارات التي تحققها القوى الأمنية في مواجهة الخطر القادم...

تناول الصفحة التي تختصر التقارير السميكة والتي يعدها مدير مكتبه، قرأ بدون تمعن... هم يقومون بتأدية واجبهم، هذا الأمر كما شرحوا لي سابقاً ليس من اختصاصي... أنا طبيب، قدري هو الذي ساق هذه المسؤولية في طريقي... لو أنني كنت ابن شخص عادي لما اضطررت لاستلام السلطة بالأساس، وجودي كان الحل الوحيد لتجنيب البلاد حمامات دماء لا تنتهي...

ألقى نظرة على كافة الصفحات التي تلخص الأكداس التي يفترض بها أن تشرح الواقع الميداني... الهم الأمني هو البارز، خطوات الإصلاح تسير بشكل جيد، مشاريع القوانين والتعديلات...

- هذا ما كانت الجماهير تطالب به، الشعب يحبني.... التقارير كلها تؤكد على أن القلة التي تثير المتاعب مأجورة وعميلة...على الإنترنت كنت سابقاً أدخل الفيس بوك بحسابات وهمية لأقرأ ما يكتب عني، هذه القلة المأجورة تبدو أكبر من حجمها الطبيعي في العالم الافتراضي.... يؤلمني الإساءة لصورتي، السخرية من لفظي... التقولات التي تثار عن علاقات جنسية... أنا أبسط منكل هذه التعقيدات لكنهم لا يريدون أن يستمعوا لي.

التقرير الأخطر من بين التقارير هو التقرير المتعلق بالطاقة، المقاطعة منعت استيراد المشتقات النفطية، شبكة الربط الكهربائي في خطر، إنتاج الكهرباء من السدود محدود... العنفات كثيرة الأعطال وإنتاج الكهرباء من المحطات الحرارية مهدد في أي لحظة، المجموعات الإرهابية تسيطر على مناطق الإنتاج النفطي وعلى السدود، التخريب السابق الذي كان يطال خطوط نقل الطاقة أصبح يهدد إنتاجها.

- شو بدهن مني... أنا عم حاول طور بالبلد، الأجهزة معها حق... شعب ما بينعطى وش... المواقف المبدئية هي السبب اللي خلاهم يهجموا عا البلد ها الهجمة... أنا مستحيل سلم، الصراعات الحالية هي تصفية حسابات بين الدول العظمى... بدهن يدمروا البلد... المشكلة هي الأمور المعيشية... ما لازم نسمح بأنهم يدمروا البنية التحتية للبلد.
- سيدي.
- شو يا أبو سليم؟
- سيدي هناك إشاعات مسيئة لمنصب الرئاسة، إشاعات لا يمكن السكوت عنها... الحياة الشخصية للقادة ليست ملك لهم... يجب التصرف.
- قرأت القصص في الإنترنت... إشاعات مغرضة... قصص نسائية وتفاهات.
- نعم يا سيادة الرئيس، لكن لا يمكن السكوت.
- ومن قال إننا نسكت؟

عندما غادر أبو سليم القاعة كان بوده تحطيم كل شيء، لكنه كبت غيظه...

ما أثار نقمته ليس السخرية من عيب النطق الذي رافقه منذ الطفولة، ولا من قصص مغامرات نسائية مختلقة كان يتمنى في داخله لو أنها صحيحة...

الحنق كان سببه أنه سمع صوت الأب في نبرة العتاب التي حملها صوت مدير المكتب، كانت نظرة الأب الباردة تحدق فيه معاتبة من خلال مدير المكتب المخضرم.

هذه الأمور الشخصية عليها الانتظار ككل شيء أخر، إيجاد حل لمشكلات الحاجات الضرورية هو الهم الأول الآن، الطاقة... الوقود للتدفئة والنقل والأفران... لا بد من القضاء على الإرهاب.

- هناك من ورث عن أبيه قطعة أرض، حساباً مصرفياً... متاع دنيا، أنا ورثت بلداً... بلد مليء بالهموم والمشاكل، تاريخ دموي لعين... ورثت أن أكون مسؤولاً عن ناسي وشعبي، قدري أن أكون صخرة المقاومة والممانعة...

ابتسم بسعادة بعد أن فكر بقضية الممانعة والمقاومة... كانت الإشاعات التي ترميه بها المعارضات تشعره بنوع من الرضا.

دخلت ماريا بصحبة نزار لبهو المركز الثقافي... اليوم هو اليوم الأخير لدورات اللغة، توقفت الدراسة بسبب من توتر الأوضاع الأمنية... كانت ماريا تريد الحصول على مصدقة تثبت نجاحها في المستوى الحالي، نزار انتظرها على الشرفة الصغيرة التي تعج بأجيال شابة... فتيات تعوض يفاعة أجسادهن الطرية عن جمال مفقود، كما هي ماريا كانت الغالبية... جمال شبابي لا يمكن تقييمه بمعايير الإثارة التي تشكل الميزان الذكوري الأزلي لتقييم الأنثى.

الوجوم الذي كان يطغى على الشرفة كان استنساخاً للوجوم الذي يغطي المشهد ككل... وجوم مترقب للقادم الجديد، وجود ماريا معه خلق نوع من الارتياح لدى المجموعة التي كانت تملأ الشرفة دخاناً وثرثرة...

كان يقف على الشرفة وكأنه في عالم أخر، لم يسمع الأصوات الشابة تتحدث بتأمر عما يحدث في الخارج، لم يشعر بأهمية الهمسات التي اخترقت غلالة الخوف وبدأت بالتحدث عن التغيير والتطهير، كلمة الديمقراطية كانت تتردد بشكل أقل خجلاً مما كانت أثناء شبابه...

صارت الديمقراطية كلمة لها رائحة الشوارع، كلمة تختلط اليوم بأشعة الشمس والتلوث الناجم عن عوادم السيارات، بينما كانت في السابق تحمل رائحة غرف مغلقة، غرف الأصدقاء... إبريق الشاي الأزلي... منافض السجائر المليئة بالأعقاب... كلمة كانت بطعم مرارة الهزائم، كلمة بألم الاعتقال... كلمة هربت من تلوث الغرف المغلقة والزنازين لتخرج لتلوث الشوارع وللمعتقلات المفتوحة.

ترك كتلة الشباب تحلم وغادر برفقة ماريا.... شعر بقلبه يخفق كعصفور وهو يتقافز معها في الشوارع التي تقود لمختبره.

- لا تعنيني ضرورة التغيير التي يتحدث عنها جيلكم يا ماريا، التغيير الحقيقي هو الذي يمكن البشرية من العيش الأفضل... هذا ما أسعى له، تغييركم سيغير الوجوه والأسماء فقط، سيبدل طغاة أزليين بطغاة جدد، تغييركم يحمل الخراب والدمار... تغييركم ثورة، تغييري تطور.
- نزار... أنت تحلم أكثر منا.
- لا يا صغيرتي.... سنصل قريباً للمختبر وسترين الحقيقة، سأثبت لك أن التطور ممكن، بل وهو أسهل من الإصلاح والثورة.
- نزار أنا أثق بك، أثق بحلمك... لكنك مثلنا تحلم... الطريق الذي تتجه إليه طويل، أطول من طريق الإصلاح، الإصلاح الذي يعتبره البعض... مثل سامر... مناورة من النظام وتضييع وقت.
- سترين يا ماريا.... ستتأكدين من نبوغي قريباً.

وضعت يدها في مرفقه وشدت عليها بحيث صارت تلامسه كلما اختلف إيقاع خطواتهما، بالنسبة لها كان هذا التأبط اعتيادياً مع صديقاتها ومع بعض زملاء الجامعة، إلا أنها كانت وبغريزة الأنثى تعلم حق العلم... التأثير الذي يملكه ذراع الأنثى الذي يتأبط الرجل، نزار كان قد استيقظ للتو

من أحلام الاختراع والإبداع، توقف قلبه عن الخفقان لثوان، تلاشت منصات التكريم للمخترع العبقري وعاد قلبه لينبض كما كان في السابق، ماريا تنزله من علياء العلم وتعيد له الإنسان الذي كانه.

- ماريا البلد عم تتغير.
- أيه هذا شي منيح وكان ضروري ولازم من زمن بعيد.
- الناس كمان عم يتغيروا.
- صحيح....
- أنا خائف من عواقب التغيير.
- لا تخاف أنا معك، "قالتها بابتسامة بينما شدت ذراعها المتشابكة مع ذراعه تحاول طمأنته بأن قربته منها"...

فجأة أحس أنه في درس رقص، يتعلم الخطوات للمرة الأولى، يحاول أن ينسق خطواته لتتناغم مع خطوات العصفورة القافزة معه، بالوصول للزقاق الذي يحتوي منزله ومختبره، أحس للمرة الأولى بعيون أهل الزقاق والباعة المتجولين تخترقه... تعريه لتظهر ضعفه وعجزه، تجاهل النظرات وهو يقود ماريا لمدخل البناء ليصعد بها....

- كنت أريد أن أطلعك على شيء هام.... قالها بشرود وهو يحاول تنظيف مكان لها لتجلس به.
- الكهربا مقطوعة عندك؟
- فكوا العداد... تأخير في تسديد الفواتير
- حلو... عصيان مدني؟
- لا... مو تمام... سأشرح لك،

بدلاً من أن يوصل صندوق الطاقة الكلي القدرة لشبكة منزله لينير المكان، أشعل شمعة صغيرة أضفت على وجهه نوع من السحر، بدا وجهه كأنه وجه مارد خرج من القمقم لتوه، خصلات شعره الملفوفة بعناية لتغطية صلعته تشوش ترتيبها، النور المتراقص للشمعة أظهر الأنوثة التي لم تكن ماريا قادرة على إظهارها قبل الآن...

عضت على شفتها السفلى بشكل كان كفيلاً بإغرائه ليستفيض بالكلام عن نفسه، عن أصدقائه، ماضيه... لا حاضر لديه ليتكلم عنه... أمطرها بقصص من الماضي... كان مازن هو الصديق الذي يسيطر على شخصيته، يحاول أن يبدو مرحاً مثله، يتذكر نكاته وقصصه، يريد أن يبهر الأنثى الأولى التي دخلت منزله منذ عقود... كان شلال الكلام يتدفق منه وهو ينظر إليها عبر ضوء الشمعة المتراقص، بينما هي تزداد أنوثة بمرور الدقائق... الأنوثة التي لا تفجرها المساحيق بل يدفعها اهتمام الرجل لتنساب.

- من زمان ما زارك حدا بالبيت.
- صحيح، كيف عرفت؟
- نسيت أن تعرض علي أي ضيافة، شاي قهوة... سحلب "قالتها ضاحكة وقفزت لتستكشف عالمه الفوضوي" سأعد القهوة، أين المطبخ؟

رافقها للمطبخ وأخرج الكؤوس والقهوة... ملأ الإبريق بالماء...

- الكهرباء مقطوعة، ما عندك غاز...

- لأ، مو مشكلة.....
كان عليه فقط أن يخرج اختراعه من جيبه ويضغط بعض الأزرار لتتدفق الطاقة وتبعث الحياة في منزله.

- ماريا، هذا هو سري... "قالها وهو يخرج الصندوق من جيبه، ليوصله بروتينية لا استعراضية، وقبل أن يضغط المفتاح الأخير ليوصل الطاقة، ذهب وأغلق الستائر... سد شقوق الباب، كي لا يتلصص الجار الفضولي على الطاقة التي تأتي بدون عداد كهرباء... كانت تتوسط ظلمة المطبخ عندما ضغط المفتاح الأخير، تحولت الظلمة لنور... ضوء الشمعة المتراقص تلاشى في النور الذي انبعث من عشرات المصابيح التي أضاءت كل زوايا البيت.

- مذهل....!

الإعجاب المحدود الذي أظهرته سبب له حيرة لا يسهل تجاوزها، كان يتوقع مديحاً لعبقريته، استفسار عن السحر الذي قام به، تساؤل عن الشكل الذي ربط به الصندوق للشبكة، مصدر الطاقة، كيفية تخزينها...

- عن جد ممتاز، صار فينا نشرب قهوة.

"قالتها بابتسامة شديدة الإغواء، ابتسامة مسحت إنجازه العلمي وحولت الأضواء لها، ليصبح الاكتشاف الأهم للبشرية المرأة التي تصنع القهوة بينما يراقبها رجل، يتمنى أن يضمها إليه ليخبرها كم هي جميلة وكم هو ضعيف".
عندما عادا لغرفة الجلوس كانت ما تزال تحمل الشمعة بيد وكوب القهوة باليد الأخرى، جلست ونظرت طويلاً له:

- نزار.
- ماريا.
- ضوء الشمعة أكثر حنية... لا تفصل الصندوق، نحن بحاجته لكن خفف الإضاءة لتعود للشمعة أهميتها.

ببساطة اختصرت ماريا سنين طويلة من البحث، الاكتشافات... عرفت بحس المرأة المدهش أهمية الكشف المعرفي الذي قام به ولكن الأهم عرفت أين يجب ألا يتم استخدام هذه التقنية.

كان تراقص لهب الشمعة لا يعني له النار، ولا الطاقة التي تنبعث من احتراق مواد عضوية، لم يكن الاحتراق هو إطلاق لسراح ملايين الأشعة الضوئية التي امتصتها الطبيعة من الشمس وخزنتها في الشمع، بل كان النور الذي نسي جماله وهو يحاول تفسيره... الطاقة الأهم كانت طاقة الحياة التي تشع من وجه هذه الطفلة التي تختزل الأنثى بكل جمالها وتناقضاتها....

- ماريا شو بدنا نعمل هلأ؟
- بدنا نغير الستايل شوي.
- عفواً...؟
- شعرك... لازم تغير هذا الشكل، عاطيك عمر أكبر من عمرك... عندك ماكينة حلاقة؟

لم يشعر كيف كانت خصل الشعر تتساقط على كتفيه، ولا كيف كانت آلة الحلاقة تجز الخصل الصدئة العتيقة لترمي بها في سلة المهملات... كان شعوره الوحيد مرتبط بأصابع ماريا التي تمسح جلدة رأسه لتزيل الشعر المقصوص ولتدلك فروة رأسه الذي صار فخوراً بصلعته، صلعة لا تحاول خصلة مبللة إخفاء حقيقتها...

أصابعها الدقيقة كانت لها برودة تعيد جريان الدم لجمجمته التي حاول إخفائها ببقايا الخصل طيلة السنين الماضية، سؤاله عما يمكن فعله الآن كان يقصد به تسجيل براءة الاختراع، الحصول على الاعتراف ببحثه العلمي...
لكنها عندما قادته للحمام وأحنت رأسه على المغسلة لتغسله من بقايا الشعر، عندما دعكت فروة الرأس بأصابعها... كانت أصابعها تبث سكينة في روحه... سكينة لا تملكها سوى يد الأنثى.

جففت الرأس ولفت المنشفة عليه، نظر للمرآة... الوجه الذي انعكس منها كان أصغر بعقود من الوجه الذي نظر إليه في الصباح من المرآة نفسها... المنشفة التي عقدتها على رأسه بدت كعمامة...

- ما شاء الله... هارون الرشيد بعمامته... لأ ... لأ.... شهريار.
- في خدمتك يا مولاتي ...

لم تشعر كيف كانت أصابعها تنزع بخفة المنشفة عن رأسه، كفاها تحيطان بوجنتيه... تندمج كلمة نعيماً بقبلة تحتوي حيرتها، ضياعها، رغباتها... قبلة تنحتها على شفاهه... قبلة تمسح عنه غبار عقدين من الرهبنة... رهبنة اختارها لمحراب العلم، رهبنة كانت مصيره... الشفاه التي تشققت كأرض عطشى عادت لتنتعش كأرض بللها مطر الخريف... خريف هو حياته.

غادر مازن مكتبه... في هذا المكان من الكرة الأرضية تتداخل اللغات واللهجات، الهندي والأوردو... الخواجات والمواطنين... كلهم يصنعون عربية جديدة لا علاقة لها بلغته الأم وإنكليزية لا تمت لأكسفورد بصلة، على الهاتف سمع صوت يصر على عودته للبيت.

- مستر مازن، لازم وايد شغل... بابا لازم بيجي عا البيت، انا بيطبخ عشا طيب... واحد نفر سأل عنيك... نزار قالت اسمو.

انتزعه صوت المربية من أحلام يقظة ورماه في ذكريات أيام خلت من الهموم، هموم صغيرة كانت همومنا... هموم تتعلق بلقمة العيش، العمل، المال والحريات... اليوم تزداد الهموم بهم إضافي... هم هو الموت.

نزار اتصل.... عندما غادر الأصدقاء الوطن بقي هو هناك... لقبوه بعشب الأرض، واحد من القلة التي لم تغادر... البقية رحلوا، كل اختار الطريق الذي اعتبره السبيل الأفضل للوصول للسعادة، الجنس... النساء.... النجاح... تأسيس عائلة... بناء منزل... إنجاب أولياء للعهد.

رصف الأموال... سبائك ذهبية مستطيلة الشكل يسهل تخزينها، أرقام متسلسلة تثبت أصالتها، غلاف يحميها من نائبات الزمن...

خيار الرحيل، هذا البلد منتهي... أمة محكوم عليها بالفناء، هذا هو الدافع الخفي للبحث عن خيار شخصي أفضل، نجاحات حققها أبناء الوطن... النجاحات اقتصرت على المهجر.... يستحيل أن تنجح في ظل نظام كهذا.... مافيا العمولات تمنعك من التقدم أي خطوة للأمام.

لماذا أتصل نزار الآن... يستحيل أن أساعده للحصول على إقامة أو عمل، السوريين بالكيلو هون... مؤهلاته لا تسمح له بأن يسوق لنفسه في أي مجال هنا، عليه أن يكتب سيرة ذاتية قابلة للتسويق، أخبرته أكثر من مرة... عندنا في كندا دورات لتعليم كتابة السي في....

تعود ذكريات الشباب وأيام طويلة قضوها في تبديد الوقت، تبديد ممنهج... التبديد كان النتاج الأهم لجيله.

تابع أخبار الثورة، الحماس الذي بدأت به الأمور يتضاءل حتى لدى الأشاوس من الثوار الافتراضيين، البغل وحده ما زال يلصق مختارات لمنظري الثورة، لقاءات طويلة يشاركها أشاوس أخرون....

الألم يعتصر الجميع، تعود الصداقات لتحيا من جديد.... أين بقي فلان...؟ ما الذي حل بفلان...؟ أين كان لجوء الأقارب...؟ تساؤلات تسهل إجابتها بوسائط تواصل جديدة، يبقى الوطن الهم الأكبر للثوار في الخارج.... خيار التغيير الضروري، واجب.... ثورتنا هي أعظم الثورات... سيدرسها التاريخ.... ساعات نضال تنتهي بالعودة للعالم الحقيقي والهموم اليومية.

شعور بالذنب يجتاح مازن كما هو يجتاح الأخرين، الخيار الشخصي لحياة أفضل كان الخيانة الأكبر للوطن، دعم الثورة والترويج لها هو النضال اليوم... نوع من الاعتذار عن عقم سابق، عن تخاذل وهروب من مواجهة الواقع والتعايش معه.

يا إلهي كم يندر أن نصدق مع أنفسنا...

لم يكن هروباً... كان خياراً صعباً... بل الأصعب... البعد عن الوطن... نفي قسري قام به النظام، تهجير للكفاءات.... الغرب لم يمد لنا يده.... لكنه لم يمنعنا من الوقوف على أرض صلبة وأتاح لنا تطوير ذواتنا... الفرص التي أتاحها لنا الخروج كانت حبل النجاة من الضياع في وطن لا يقدر الكفاءة ولا تتساوى فيه الفرص....

- بابا تعا أنت لازم دنجي دنجي.

ابتلعه ظلمة الأمسية وغاص في سواد المربية التي كانت تفرغ أنوثتها المهملة في حضن العشيق السيد... رفرف علم سوريا الثورة في مخيلته وهو يقذف بحممه في أتون حرارته كحرارة المحرقة السورية...

في اللحظة نفسها وعلى الجانب الأخر من الكرة الأرضية كان الوقت صباح اليوم نفسه، كان ثوري أخر يثني على أنثاه التي قذفت حممها في الثانية نفسها بتزامن مذهل...

- غوood غيرل.

قالها وهو يخرج كيساً بلاستيكياً صغيراً يجمع به روث الكلبة التي تمكنت بعد مسير قصير من إفراغ أمعائها...

كانت تقفز وتتشمم محيطها، الزوايا والأشجار، ترفع ساقها بين الفينة والأخرى لتترك فرموناتها وتُعلِم بها المكان... تُذكِر كلاب الحي بأنه هناك أنثى ليست صعبة المنال...
تهز ذيلها بسرور لا يفوقه سوى سرور صاحبها الذي أفرغ ما بجوفه منذ لحظات في بوست خالد يشيد فيه بفضائل الثورة، ويشتم المتخاذلين الطائفيين الذين يقفون إلى جانب الجزار بسبب انتمائهم الطائفي فحسب.

- يوم قررت الرحيل كان السبب الوحيد هو النظام.... النظام الذي حرم الشعب من الحريات بكافة أشكالها.... رسالتي لأوباما كانت خطوة ثورية... هي مساهمتي المتواضعة للثورة السورية، رغم أنني اخترت الخروج قبل ربع قرن، ورغم كوني لا يربطني بالوطن سوى بقايا عائلة وكره شديد لبقايا نظام....
-

نظام متهالك سيسقط قريباً بإرادة السوريين... نظام لم يبقه على قيد الحياة سوى الرماديون والذين فروا من الثورة ولم يشاركوا بالتغيير، من لم يؤيد الثورة يقف حكماً ضدها... الصمت هو ما يمنح هذا النظام قوته، لا يمكنك الهروب من سيرورة التاريخ ولا حرق المراحل، ولادة الشعب السوري الجديدة هذه هي الإثبات على أننا شعب قادر على صنع المستحيلات...

- ووان بوريتو بليز.

سار عائداً لمنزله وهو يلتهم لفافة البوريتو ... يفكر بقضايا مختلفة، منها ما يتعلق بالعمل ومنها ما يتعلق بالأسرة ... ضرورة اصطحاب ابنه الأحد القادم لمباراة البيسبول، لكن الهم الأكبر الذي كان يؤرقه هو انتصار الثورة...

- النقد الذي يوجه لانحرافات الثورة ضروري، لكن يجب الحذر... أحياناً يكون النقد مجرد ردة فعل انهزامية، وضع للعصي بين الدواليب....

الكلبة كانت تنظر إليه بحبور... تتمسح بساقه حيث أن ثنائية رائحة الزنخ التي تفوح من البوريتو ومعدتها الخالية، كانا يولدان شعوراً بالجوع يدعوها للتزلف للحصول على قضمة... كانت تنظر لسيدها بتزلف لا يخلو من الكبرياء....

- ما الذي يدور بذهنه ليشغله عن إطعامي....

فكرت قبل أن تطلق نبحة مستنكرة ثم تابعت السير مع السيد "جيد التغذية"...
شعور غامض لم يفارقها بأن ما يشغله في الأشهر الأخيرة لابد أن يكون على قدر كبير من الأهمية...

اهتمامه بها يقل يومياً وإن كان يحاول إخفاء مشاعره بمداعبتها بين الحين والأخر.

منذ أشهر لم يتمكن من الدخول لدوما، لديه شعور خفي بأنه مراقب، يعمل على تحديد أماكن إقامته لدى الأقارب، أقارب على درجة من الثراء والولاء تبعد عنهم شبهة الانتماء للحراك، يتوجه لحي الحواكير.... الحواجز الأمنية الموجودة هي لحماية بعض المهمين، لا أحد يتعامل مع دخوله وخروجه بشك أو بريبة... ترك ماريا برفقة نزار غريب الأطوار... بالتأكيد هو مصاب بفصام من نوع ما، ليس طبيعياً بأي مقياس... شخص على هامش المجتمع... مثل مئات الآلاف غيره... حياته أو موته لن يعنيا الكثير، هو خامل... ينتمي لجيل عقيم ندين له باستفحال هذا الطغيان، لو أن جيله وقف في وجه الطغيان لما وصلت الأمور إلى ما هي عليه اليوم...

- نحن من سيقوم بالتغيير... نحن جيل الشباب الذي سيهب الحياة لهؤلاء المحنطين في فيترينات الوطن... شعور بالتناقض كان يسيطر عليه كلما فكر بأمثال نزار... أناس لا جدوى من وجودهم، رمادية مقرفة ونحن نضحي بحياتنا ومستقبلنا من أجل مستقبل أفضل لهم.... ماريا غريبة الأطوار... ما الذي يدفعها للاهتمام بهذا المخلوق؟؟ هي قادرة على أن تقدم أكثر للثورة، مهارتها على برامج التصميم يمكن أن تساعدنا في التنسيقية... تصميم البانرات، إظهار الأدلة التي تدين النظام... مواهبها كان يمكن الاستفادة منها أكثر... شباب التنسيقية لا يثقون بها لأسباب مختلفة، عمها عزيز كان ضابطاً في المخابرات الجوية... توفي منذ أعوام، لكن من يدري ما علاقتهم بالأجهزة اليوم... كونها نصرانية قد يلعب دوراً في تخوف البعض منها... أنا لا أشك في ولائها للناس، لا أشك في كونها نظيفة... لكنها هوائية.... وضعيفة، من أول كف بالتحقيق ستفضح الدنيا وستدل الأمن على كل شباب التنسيقية... معهم حق، لا يمكننا الوثوق بضعفها...

كانت الشمس قد قاربت الغروب عندما وصل بيت عمته، منذ أن ترك ماريا ونزار في الصباح وهو يسير، في البداية كان الاجتماع للتنسيقية في الميدان، ثم حاول الوصول لبعض الأصدقاء في دوما...

عندما وجد أن دوما مطوقة ودخولها شبه مستحيل عاد أدراجه، تجول في شوارع دمشق.... تأمل الناس يسيرون، يعيشون حياة تدعي أنها طبيعية.... من أجلكم أنا أناضل، أضع مستقبلي الجامعي على المحك... التغيير سيأتي من أجل غد أفضل لكم.

صعد الدرج وقرع جرس المنزل، فتحت عمته الباب... كان وجهها أصفر... دموع مختنقة كانت تزيد من رمادية عينيها... عشرات القبضات ظهرت من الباب الذي فتح، وجد نفسه مكوماً على الأرض بينما كان عنصر أمن أشبه بجاموس بري يضع القيد الحديدي في يديه اللتين لويتا بقسوة مفرطة لخلف ظهره....

نحيب عمته وكلمات مفادها بأنه لا علاقة له بأي شيء وأنه من البيت للجامعة ومن الجامعة للبيت لم يخففا من قسوة الاعتقال أو يقللا من شدة الصفعات التي كانت توجهه وترسم له خط سيره .... ركلة لينزل الدرج وصفعة ليستقل سيارة عادية لا يبدو عليها أية مظاهر أمنية كانت تنتظرهم عند مدخل البناء...

- هلا بالأستاذ الناشط هلا... والله تشرفنا...! "حياه سائق السيارة قبل أن يعالجه بصفعة كانت فاتحة تنبئ بمجريات الشهور القادمة".

عندما كانت السيارة تتجه للفرع الأمني الذي نقل إليه كان تفكيره ينحصر إن كانت مخاوف رفاق التنسيقية محقة، رفضوا التعرف على ماريا منذ البداية، بالتأكيد كان قرارهم صائباً، هي لا تعرف أحد منهم، لن يتمكنوا من الحصول على أية معلومات منه، سيبقى رفاق الثورة في مأمن...

بعد تشريفة الاستقبال التي سمع عنها كثيراً حشرته أيد سبق له التعرف على قسوتها في غرفة ضيقة تحتوي عشرات الأجساد المدماة، استغرقه الأمر ساعات طويلة ليكتشف أن شباب التنسيقية كلهم قد سبقوه ... لا بد أنهم قد اعتقلوا بعد الاجتماع ظهر اليوم... دماء معظمهم بدأت بالتخثر... ابتسم وهو يغالب ألمه، كانت سعادته لا توصف بأن ماريا بريئة من تهمة الوشاية، لا يدري إن كان قد نام واقفاً من الإرهاق الذي سببه الاستقبال الحافل أم أنه أغمي عليه ولم يتمكن من السقوط أرضاً لشدة ازدحام الزنزانة... لكنه كان يحلم بغد أفضل، يسير في شوارع عريضة ونظيفة تلحق به ماريا وقد غطت رأسها بحجاب أزرق.

كانت القبلة الأولى... شعر باصطكاك ركبتيه، رعب مخيف كان يتصارع مع ملايين الرغبات التي يضج بها جسده، برودة غريبة كانت تسيطر على الرأس الأصلع، يديها كانتا تداعبان الشعيرات القصيرة على جوانب الجمجمة... انتهت القبلة... كانت من الكثافة والتركيز بحيث أنها عادلت أي تواصل عرفاه خلال حياتهما، كانت ماريا وبالرغم من خبرتها المتواضعة في شؤون العشق... تفوق نزار بمئات السنين الضوئية، استمرت القبلة الأولى دقائق مرت كأنها سنوات من السعادة بالنسبة لكليهما... رغم خفقات قلبها المتسارعة، الضعف الذي انتشر في جسدها وغطى كافة مسامها... إلا أنها بدت أكثر تماسكاً من نزار الذي فقد قوته، قسوته، نبوغه وتحول لكتلة هلامية طيعة تقودها ماريا لتعود لغرفة الجلوس.... تابعا ارتشاف القهوة، نزار يشعر بسكر مذهل تتركه قطرات القهوة على شفتيه اللتين لا تزالان ترتعشان من هول القبلة.

- آسفة... صدمتك...!
- لا... "خرجت من أعماقه بصوت خافت" شكراً أنت أعدتني للحياة.
- لا أعرف لكني شعرت برغبة في أن أضمك.
- أنا ....
- شو....؟
- أنا أكثر الناس سعادة.

قالها وهو يرفع أصابع يدها المتناهية في الصغر ليصل بها لشفتيه ويطبع قبلة اختزل فيها طاقة الحب الموجودة في الكون، قبلة بإمكانها اختزان طاقة تضاهي صندوقه الذي وللمرة الأولى منذ أعوام تحول ليصبح مجرد غرض حياتي له وظيفة يؤديها في المنزل ولم يعد له وجود يذكر في حضور ماريا الطاغي.

الطاقة التي تسبح في الأثير من الصندوق لتصل للمستقبل المرتبط بشبكة المنزل كانت تعبر خلال الجسدين، دغدغة خفيفة كانت تترك ورائها، دغدغة غير محسوسة.... قد يكون هذا التفسير المنطقي الوحيد لما جرى الآن... كيف تقوم فتاة بعمرها بضمه، بالاهتمام به إلى هذه الدرجة... القبلة التي أزهرت على شفتيه... تأثير انتقال الطاقة بالأمواج الأثيرية غير معروف، أتكون هذه القبلة من المضاعفات والتأثيرات الجانبية للصندوق؟

- شايفتك شردت....
- أفكر بما حدث...
- أنت منزعج مني
- بالعكس... أجمل ثانية في عمري كانت التي ضممتني بها.
- لم لأعرف ما الذي جرى لي.... لم أتصرف بهذا الشكل في حياتي.
- وأنا لم يقبلني أحد في حياتي... لا بهذا الشكل ولا بغيره، كل ما كان قبل هذه الثانية هو وهم.... حياتي ابتدأت الآن...
- نزار... أحببت في حياتك؟
- لا أعتقد... لا أعرف، ما هو الحب...؟ هل تعرفينه...؟
- حتى صباح اليوم كان الحب بالنسبة لي... مرتبط بنشاطات، بطقوس، نظرات خفية، ابتسامات... تتبع أخبار الأخر... تبادل هدايا قبيحة في يوم الفالنتاين... حتى

القبلات... كانت مدروسة، قبل سنوات كنت أعرف شاب... كنا نتبادل قبل سريعة وخاطفة في مداخل الأبنية... لا أظن أنه كان حب... رغبة في الاكتشاف، حب معرفة، رغبة لإثبات الذات... رغبة والسلام.

- أحببت مرة واحدة... رقصت معها رقصة سلو.... كانت كالبطة...
- وليييي... بلشنا بالسياسة؟
- ما فهمت....
- أنت ناقصك كتير يا ابني....!
- صحيح.

شرحت له قصة البطة، التعبير الذي تحول ليصبح السخرية الرسمية للتنسيقيات من شخصية رأس النظام، دهشته من الجرأة التي تتكلم بها... حواجز الخوف التي سقطت لدى جيلها... جيل ربما لا يعرف ماذا يريد بالضبط، لا يعلم كيف ستتطور الأمور... لكنه موقن بحتمية التغيير، السخرية من النظام والنكات السياسية رافقت مراحل تطوره، لكن نكات تمس رأس النظام كانت تلقى حصراً في غرفة مقفلة وبوجود أفراد الشلة... مازن، زياد، سليم... أي شخص جديد يدخل الشلة كان يحتاج لدهر قبل أن يسمح له بالاستماع لمثل هذه النكات... السخرية من رأس النظام يومها كانت تماثل في قسوتها جريمة حمل السلاح ضد الدولة... رغم أنه لم ينطق بهذه الأفكار التي دارت في رأسه إلا أنها أجابته:

- ما زالت السخرية من رأس النظام تشكل جريمة في عصرنا يا نزار، لكنها جريمة نرتكبها بسرور... "هذا ثأرنا أن نهجو قاتلنا".
- ماريا... السخرية هي سلاح الضعيف، السخرية منه هي تنفيس ودليل عجز.
- أنا ضد العنف، برأيي يمكن التغيير بشكل لا عنفي... سامر يرى أن الحل الوحيد الممكن يكمن في الثورة على الطغيان.
- العنف يولد العنف ويستدعيه، الأنظمة قامت على العنف، وهي أكثر خبرة في ممارسته... أظن أن سامر وغيره سيكونون ضحايا في هذه المحرقة العنفية.
- أخشى عليه...
- أتحبينه؟
- لغاية مساء البارحة كنت أعتقد أنني أحبه.... في المساء اكتشفت أنني... لا أعرف...
- ما الذي تغير البارحة؟
- قل لي أنت....
- أنا أيضاً لم أعد أعرف أي شيء، كنت أمتلك الأجوبة دوماً لأي مسألة رياضية، علمية... كنت خبير فيزياء الحياة، لكني لم أفهم يوماً خيمياء الحب.
- نزار أشعر بشيء غريب.... أحس بأنني أسمع أفكارك، أحس بأنني أشعر بك... أرى الساعات الطويلة التي قضيتها في البحث والعمل... كأنني كنت معك...
- ماريا أنا أشعر بالخوف... لدي نفس المشاعر، أشاهد الكوابيس التي تمنعك من النوم... أحس بأنني جزء منك.... رغباتك تحرقني...
- هل هذا هو الحب؟
- لا... أخشى أنه من التأثيرات الجانبية لجهاز نقل الطاقة، "يتجه نزار للصندوق، يفصله لتعود الإضاءة الناجمة عن تراقص لهيب الشمعة لتحكم المشهد، يجلس بقربها... يمسك يدها التي تزداد برودة".
- أفهم من كلامك أنك لم تختبر التقنية بعد؟؟ هل يمكن أن يكون لها تأثيرات جانبية أخرى... إشعاعات مسرطنة...

- لا مستحيل، هي طاقة صرفه تنتقل عبر الهواء، الطاقة لن تؤثر على بنية الخلية... بنية الخلية أرضية وبدائية، الطاقة هي الكمال ... قد تتداخل مع الطاقة التي تشكل ...
- الروح؟
- سمها ما شئت، أنا لا أعرف تسمية لها...
- نزار... أنت عبقري.
- شكراً.......... العبقرية باختراع الصندوق المخزن للطاقة......
- "تقاطعه" أي طاقة...؟ صندوقك هذا مجرد لعبة، الاكتشاف الأهم هو الحب...
- لم أفهمك.
- نزار... عندما ضممتك وقبلتك... كانت رغبتي الوحيدة في الحياة احتضانك، لم تعني لي الدنيا أي شيء... الشيء الهام الوحيد كان أن أضمك لصدري وأن أنصهر معك... لحظة العناق لم تستمر طويلاً لكنها كانت غير كافية، عندما كان الصندوق يعمل كنت أعيش في داخلك، أعاني ما تعانيه... رأيت أصدقائك وسهرت معهم ليالي نبيذ رخيص، أظن أنني كنت أسمع أفكارك... لا داع لأن تشرح لي كيفية عمل الجهاز لأنني سكنت في عقلك... أنت اكتشفت شيئاً أهم من جمع الطاقة وتخزينها، اكتشفت الطاقة الإنسانية... الحب... الله... سمه ما شئت.
- ماريا... منذ أطفئنا الجهاز والأمور قد اختلفت... ما زلت أرغب في احتضانك... في قبلة أخرى، لكني أستطيع التفكير ثانية... لم أعد أرى كوابيسك وأحلامك كحقيقة... كأنني كنت أعيش داخل رأسك وقد خرجت منه الآن.
- تماماً نفس شعوري... كان تأثير الجهاز بالتأكيد هو المسيطر علينا، كان بإمكاني فهم كيفية عمل الجهاز عندما كان يعمل... الآن أفهم التقنية ولكنني لا أستطيع تنفيذها... وما زلت أرغب في احتضانك... "امتدت أصابعها لتداعب رأسه الذي كانت شعيرات قصيرة تعطيه ملمساً خشناً يتناقض مع نعومة المنطقة الجرداء، كانت تمسح على رأسه بود وحنان وكأنها تداعب قطاً." هل تعرف معنى اختراعك هذا... إن تمكنت من تفعيله على نطاق واسع؟
- لا يمكن المخاطرة... الطاقة قضيتها بسيطة... يمكن للصندوق أن يحل مشكل البشرية... المشاكل الدنيوية، الصناعة... الزراعة... لكن تقنية نقل الطاقة هذه... هذا التأثير الجانبي... لو تم تطبيقه كيف ستكون النتيجة، أسف لأنني عرضتك لتأثير حقل نقل الطاقة... كنت متأكد من أنه غير مؤذي، أنا أعيشه منذ عدة سنوات ولم يكن له أية مضاعفات صحية.
- بالطبع كانت له مضاعفات، أنت لم تكتشفها لأنك كنت وحيداً... كيف يمكن للحب أن ينتشر بدون وجود طرفين، وجودي كان ضرورياً لترى التأثير... كيف يمكنك أن تحب وأنت وحيد؟
- ماريا هل نحن مجانين؟

لم تحتج ماريا لأن تؤكد له بأنه ليس مجنون للكلام، يدها التي تداعب رأسه شدت الرأس ليقترب من شفتيها وتابعت القبلة التي بدأتها فيما قبل، رغم الوضعية غير المريحة التي كان يسببها جلوسهما على الأريكة... إلا أن القبلة استمرت طويلاً، كان يشعر بها كأنثى... يشعر بجسدها يرتجف بين يديه... لم يكن في حالة الخدر التي رافقت القبلة الأولى، كان الشعور بالسعادة يسيطر على خلايا جسده.... ارتجاجات جسدها كانت تؤكد له أن ما تشعر به لا علاقة له بتأثير الصندوق، لم تكن الطاقة هي الدافع للقبلة، بل كانت المادة... الجسد الذي يحتاج لجسد أخر يتفاعل معه...

الحب له مستويين أساسيين... حب جسدي وحب روحاني... تذكر ما قرأ عن الحب الصوفي والعشق الإلهي... رابعة، الحلاج... كانوا سابقاً مجرد شخوص من التاريخ تخفي علاقات عشقها بمنح المعشوق الصفات الإلهية... إنكار للحقائق... اليوم يعيش حالات العشق كلها، يكتشف للمرة الأولى معنى الحب... الطاقة التي تنتقل بين كيانين... والحب الجسدي، الأسرع والأقل ديمومة.

- نزار هل تعتقد أنه بالإمكان تسويق جهازك... هل تعتقد أنك ستحصل على براءة الاختراع
- بالنسبة للدوائر الرسمية هم لا يهمهم إلا دفع الرسوم، أن تكون الإضبارة مكتملة، الطوابع ملصقة بشكل صحيح على ثلاثة نسخ من البحث، سبعة طوابع لكل نسخة... لماذا لا يضعون طابعاً واحداً قيمته سبعون ليرة... أو لماذا لا يجمعون رسم الطوابع مع رسم الللجنة مع الإيصال.... لماذا يتوجب عليّ أن أقدم البحث مع خاتم ترجمان محلف يؤكد أن الترجمة تمت على مسؤوليته.
- نزار ليس هذا ما يشغلني... أنا أخاف عليك.
- من أي شيء؟
- هل تعتقد أنك تصنع أصدقاء بتنفيذ اختراعك ونشره للعلن؟
- بالطبع البشرية ستكون مدينة لي بإمكانية استمرارها.
- والمصالح التي ستدمرها عبقريتك، شركات النفط العملاقة... إن لم يشتروا اختراعك ويؤجلوا استثماره لحين انتهائهم من استنفاذ مصادر الطاقة الأخرى، فهم بالتأكيد لن يسمحوا لك بتسويقه.
- التطور لا يمكن إيقافه، البشرية اكتشفت النار، الأساطير تقول إن بروميثيوس سرق النار من الآلهة... الطاقة التي حصل عليها البشر من الآلهة كانت الخطوة الأولى لتطورهم.
- صديقك بروميثيوس يا نزار لم ينج بفعلته، بقي النسر يلتهم كبده كل يوم... وسيدنا زيوس يجعل الكبد ينمو ثانية...
- تعرفين يا ماريا أن فكرة الله متشابهة عند كل البشر... هذا الجلاد الذي لا يكتفي بسلخ جلود البشر أحياء، بل يبدلهم جلودهم بجلود أخرى ليستمتع بتعذيبهم من جديد...
- لا يهم أنا لا أقف في وجه الآلهة.
- أتعتقد أن مصالح الشركات النفطية، أن شيوخ النفط والغاز سيقبلون فكرة تخرجهم من سوق الثراء للبطالة، هل ستبقى إيران شوكة في خاصرة العالم إن استغنت الصين عن نفطها... أم أن أوربا ستغض البصر عن القيصر الروسي إن لم تحتج غازه... هل سيرقص دبلوماسيو الغرب بالسيف ويدعون الاستمتاع برقصة العيالة والدباجة وسباق الهجن... لو لم يحتاجوا نفط شيوخ الصحراء...
- لا لكن البشرية تتطور... وهؤلاء طفيليات على تاريخ البشرية وليسوا آلهة.
- ملايين العمال المنتجين للطاقة، ستضعهم خارج سوق العمل، ستصبح الملايين عاطلة... من سيقدم لهم الطعام... سيكون لديهم كهرباء مجانية... هل يمكنهم سلق الكهرباء لإطعام أطفالهم...
- هذا التطور سيلغي دور النقد... سيختلف الاقتصاد الذي نعرفه... سننهي البنوك والقروض وأسواق البورصة....

- نزار أنت كنت ضد الثورة وتتحدث عن التطور... ما تقوم به هو ثورة ستخيف الجميع... أنت تختزل الزمن... تلغي الإنسان من حساباتك، هذه هي المعادلة التي لم تحسبها بشكل دقيق.
- ماريا... من أنت؟
- أنا قدرك يا عزيزي... أنا الصبية الضائعة التي عاشت فترة قصيرة في رأسك، عندما كان الصندوق موصولاً... لم تشاهد أنت كوابيسي فحسب، بل عشت أنا كوابيسك والتساؤلات التي كنت تهرب منها.
- ماريا... ادخلي ثانية لرأسي... سأوصل الجهاز، أريد أن أعرف أكثر.... "بينما كان يوصل الجهاز شعر بيدي ماريا تحيطان به من الخلف وشعر بجسدها يضمه بعشق لا متناهي سبق عودة النور للمنزل"
- ....

كانت الرحلة التي تسوق سامر من الزنزانة المكتظة ببقايا متظاهرين، نشطاء، سياسيين، عابري سبيل ساقتهم الظروف لقدر عبثي لتقوده لغرفة التحقيق... تمر عبر ممرات مظلمة تنتهي بدرج يصعد وفي نهايته نور... النور القادم من المستطيل القابع أعلى الدرج... كان يعني له سابقاً الهدف، النور الكائن في نهاية النفق المظلم، الحرية... هكذا قرأ وفكر سابقاً... من تكلم عن الحرية ووصفها بهذا الشكل الرمزي، لم يعرف الألم الذي يسببه النور بعد أسابيع من الظلام... النور أكثر إيلاماً من ركلات العناصر التي تدله على الطريق لغرفة المحقق... سيكون عليه الاعتراف بكل ما يعرفه، أفراد التنسيقية، الأصدقاء على الفيس بوك، سيعترف بكل شيء ليتجنب الألم... سيقول للمحقق أي شيء يرغب بسماعه... لم أعد أحتمل الألم والقذارة، الكدمات التي ملأت جسده حولته لحطام ناشط.

- أهلا سامر خذ الأوراق والقلم واكتب سيرة حياتك من يوم ما طلعت من كس أمك لليوم.

تلك كانت الجملة الوحيدة التي نطق بها المحقق الذي جلس كمدرس وراء مكتب مليء بالأضابير والأوراق، بينما انتشرت بقايا هياكل بشرية على الكراسي الموزعة في غرفة المكتب... كل منكب على الأوراق يفرغ حياته بها دون أن يرفع رأسه، لم ينتظر المحقق جوابه المدروس "أمرك سيدي" ولم يكن مهتماً به كشخص، هنا هو جزء من ظاهرة، ليس فرداً بل عضو تنسيقية، ليس المطلوب إصلاحه أو اكتشاف معلومات عن نشاطه... كل ما تقوم به التنسيقيات معروف بالنسبة لهم، الشباب في الثورة يكتبون على الأوراق التي يقدمونها للمحققين أقل بكثير مما يكتبون على صفحات التواصل... الأوراق التي سيكتبها مجرد شكليات... شكليات ستسبق... ترحيله... إعدامه... تعذيبه... لصق تهمة الإرهاب به وعرضه على التلفزيون ليدلي باعترافات ما....

- سيدي كمان ورقة.
- صغر خطك يا حيوان، من وين بدي جيب لكم ورق... العمى.

النص الذي اعتاد تدوينه في الاستمارات الأمنية التي يتم تقديمها ثلاثة مرات وسطياً في دورة حياة المواطن تبدأ عادة ب:

"ولدت يوم كذا لأسرة كادحة، درست في مدارس كذا وانتسبت لاتحاد شبيبة الثورة بتاريخ... وللحزب بتاريخ... والدي يعمل... الاتجاهات السياسية لأعمامي وأخوالي... حزبي... محايد إيجابي... أصدقائي هم...."

هذا النص تسرب للوعي الجمعي للمواطن، تشربه سامر مثل غيره وهو متأكد أنه سيكون نسخة عما سيكتبه المئات.

المحقق كان يظهر علامات الضيق والتأفف من بطء الكتابة، عندما ينتهي أحدهم كان يأخذ الأوراق من يده، يؤشر عليها، يثقبها بتأن ويضعها في ملف كبير مغبر كتب عليه بقلم عريض الرقم 617، تحته كتب "تنسيقيات / 2013".

بعد أرشفة الاعترافات في الملف، كان المحقق يصرخ بكلمات فيها اتهام لوطنية المعترف، يشتم بقذارة وروتينية، ثم يستدعي أحد العناصر، يعطيه ورقة تم التأشير على طرفها بقلم أحمر قائلاً: يا ابني رجعوا لمحله لهذا الحيوان.

الواضح كان أن المحقق غير مهتم بما كتب أو سيكتب، المهم هو توثيق الاعترافات، تداعت في ذاكرة نزار مئات للمشاهد المتخيلة للتعذيب، الشبح، بساط الريح، الكرسي الألماني... لا شيء... المحقق موظف كغيره... يؤشر في الزاوية المخصصة له على الاعترافات، يضع ملاحظة في السجل الكبير المفتوح أمامه... بالتأكيد أمام اسم الموقوف، دونت اعترافاته بتاريخ... حيث أنه كان ينظر لساعته بعد كل اعتراف، ثم يتشاغل بقراءة نص ما... قد يكون اعترافات أحدهم... كان يرتدي حذاء أسود، حذاء أسود، يظهر من نعله أنه قد استهلك ولكنه ما زال يؤدي وضيفته كحذاء... فكر سامر في أحذيته.. ليس لدي حذاء مهترئ كهذا، أحذيتي أرميها قبل أن تصل لهذا الحال بسنوات... هو أكثر مني حاجة للثورة...

بعد تدوين الاعتراف، دلته الصفعات والركلات على طريق العودة، الشتائم والتخوينات ليست مهمة هنا... الدخول لظلمة القبو كان مريحاً لعينيه اللتين كانتا تدمعان من شدة النور، كان يعاني من حساسية شديدة للنور الباهر، النظارة الشمسية لم تكن تفارقه، لكنها طارت عند الصفعة الأولى يوم اعتقاله.

التعذيب ينقسم لقسمين، الضرب والشتائم... الضربات المؤلمة والتي تترك الأثر الأكبر تأتي من عدد محدود من العناصر... أناس يعملون بضمير وشرف، قناعتهم بجرائم المعتقلين والولاء الكامل لسيد الوطن هو سبب حقدهم غير المحدود على هؤلاء المفسدين، القسم الأكبر من العناصر كان يتفنن باستخدام الشتائم، لكن ضرباتهم كانت أقل إيلاماً... كانوا يضربون عن غير قناعة، ولا يستخدمون العصي والهراوات لكسر العظام بل للنخز والدفع... كأنهم يريدون التهرب من الضرب.... شتائمهم كانت أكثر قذارة من بقية الجلادين، ربما ليحموا أنفسهم من تهمة تواطؤ مع المندسين.... عندما كان العنصر المكلف بالحراسة أو بمرافقته للحمام يبدأ بشتم الأم والرب ويتوعد بسلخ جلده... كانت مشاعر الاطمئنان تنتاب سامر، في داخله كان يعلم بأن العنصر الشتّام سيكتفي بدفعه ونخزه والبصاق عليه إن اضطر لذلك... بينما كان الجلاد يبدأ صامتاً وينتهي صامتاً ... تنفرد الضحية بإصدار الأصوات، مترافقة بإيقاعات السياط والهراوات التي تصدر رنات مكتومة وهي تقرع أعضاء الجسد.

سيمفونية الرعب هذه انتهت بعد أسابيع بإطلاق سراحه، إطلاق سراح بعد تسوية أوضاعه كما سمع في التلفزيون بينما كانت عمته تداوي جراحه وتكبس خليطاً من البن وحبة البركة على الانتفاخات التي ملأت رأسه وهي تؤدي الرقية الشرعية وتدعو على الظالمين.

كم كانت غيبته... الأسابيع استطالت بحيث أنه لم يتذكر متى تم اعتقاله ومتى أطلق سراحه، ماذا حصل في الجامعة... الشلة... ماريا وأليسار...؟

- عمتي هل سأل عني أحد أثناء غيابي؟؟؟
- لا يا عمتي... لأ... لأ... صحيح... بعد 3 أيام أجت دورية مخابرات وقال إنك مطلوب القبض عليك، قلنا لهم تأخرتم تلات أيام... سبقوكم رفقاكم.
- وشو عملو؟

- ما قالوا شيء، أخذوا ابن الجيران... اسمه كان مكتوب عندهم أيضاً.

قضى سامر الأيام الأولى بعد الاعتقال يكتشف لذة الاستحمام، طعم الخبز الرائع عندما يكون ساخناً... يستمتع باكتشاف براعة عمته في الطبخ، ويتذكر الحصى الذي يرافق الخليط العجيب الذي يسمى في السجن حساء العدس... يستمتع بالخصوصية في قضاء الحاجة، في حمام كبير... مساحته تكاد تقارب الزنزانة التي حشر فيها مع أعضاء تنسيقيته في الأسابيع الأخيرة... متع لم يعرف طعمها فيما سبق.... خلال هذه الأيام كانت جراح الجسد تلتئم، بينما الجرح الأعمق بقي ينز صديداً... الشرخ الذي حملته روحه لم يكن سببه الإهانة أو التعذيب... أو إدراكه المتأخر بأن المشوار سيطول كثيراً وأن ما حصل في دول أخرى لا يماثل ما يحدث في سوريا.... الطعم المر كان سببه شعوره بالخيانة، من أرشدهم إلينا... هل الثورة مخترقة لهذه الدرجة؟ عندما قبضوا على زملاء التنسيقية كانوا يعرفوهم بالاسم، كانوا يعرفون أين سيكون في المساء... من أي جهة أتت الخيانة... هل الثورة والنشطاء بهذه العشوائية والفوضى، هل هم مخترقون للعظم...؟

الخيانة الأكبر التي كان يشعر بها هي ماريا... لماذا لم تسأل عني، تعرف بيت عمتي... بقية الشلة سيتجنبون السؤال عني لكوني سأسبب لهم شبهة، لكن ماريا... كان يفترض بها أن تستفسر... انتمائها، زمالة الجامعة ستؤمن لها الحماية اللازمة...

شعور بالمرارة دفعه لأن ينسى الحلم الذي كان السلوى الوحيدة في الزنزانة، حلمه بالزواج من ماريا وهدايتها للدين الحق... وجهها الطفولي البريء يزداد جمالاً بغطاء الرأس، النور الذي سيضفيه عليها الإيمان سيزيد فتنتها...

في مثل هذا الوقت تكون الشلة في المقهى، ارتدى ثيابه وودع عمته وخرج.... العمة التي دست بعض النقود في جيبه أوصته بأن يبتعد عن المشاكل وأولاد الحرام

- أنا مبعد عن أولاد الحرام يا عمتي... ادعي لي أن يبتعدوا هم عني.
- الله يسهل لك دربك يا سامر، الله ينجينا ويسترها معنا بجاه النبي.

غادر ترافقه شلالات الدعاء... سار في الشوارع، بين الحين والأخر كانت متسولة على قارعة الطريق تكمل موشح الدعاء الذي بدأته العمة... الله يسترك، الله يعطيك، الله يخلي لك ولادك، الله يعافيك ولا يبليك....

انعطف عند حديقة الجاحظ واتخذ طرقات فرعية، مر قرب مروش، ذكريات الشلة تتناول الفتات في مروش... رائحة البصل، ضحكات ماريا...

فندق الشام المغبر بالمطعم الدوار يبدو للعيان، يدله على الطريق للمقهى... الشوارع تبدو أكثر توتراً عما كانت عليه قبل، السيارات أقل... المارة يحثون الخطى... قلة هم من يتسكعون في الشوارع، الغالبية لا تخرج إلا للضرورة القصوى... المقهى شبه فارغ... من الشلة لا يوجد أحد... ماريا ليست هنا.

الجامعة مغلقة... انتهى العام الدراسي بينما كان يكتب قصة حياته للمرة العاشرة، بالتأكيد معظم أفراد الشلة نجحوا، سيكون الوحيد الذي سيعيد العام الدراسي... لم يتقدم للامتحانات وخسر العام...

- خسارة عام لا تهم إن كسبنا الوطن...

قالها بصوت عالي بينما كان الكرسون يضع فنجان القهوة أمامه.

- استرنا يستر عرضك...
- عفواً ... كنت عم فكر بصوت عالي.
- أي ليش لح يجيب أخرتنا شي غير هذا التفكير.

اختفى الكرسون وكأنه كان حلماً مزعجاً، بينما ظهرت في مدخل المقهى ... ماريا... انتفض واقفاً يشير لها بيده لتأتي إليه... عندما اقتربت تأكد أنها ليست ماريا، تشبهها قليلاً لكنها ليست ماريا... تجاوزته وهي تنظر بدهشة للشاب الذي نظر للأرض، كانت متأكدة من أنه حسبها شخص أخر... حالة عينيه ازدادت سوءاً منذ الاعتقال، الضربات على الرأس وتناوب الظلمة والنور... زاد في تخريب الشبكية، عن بعد يرى الملامح العامة ولكنه لا يتمكن من تمييز الأشخاص.

لمح خيال أليسار يدخل المقهى... هي بالتأكيد شخص أخر، تابع التحديق في الفراغ، لم يوقظه من حلم اليقظة الذي كانت بطلته ماريا المرتدية للزي الشرعي سوى صوت:

- سامر... مو معقول الحمد الله عا السلامة
- أهلين أليسار... طمنيني عنك
- إيمتى طلعت؟
- من كام يوم... كيفكن...
- مثل مالك شايف... مثل بعر الجمال، من ورا لورا.
- طمنيني وين بقية الشلة؟؟؟ شو صار فيكم... مين نجح ومين رسب...؟ وليش لابسة أسود؟
- القصة لح تطول، اطلب لي قهوة وباكيت دخان... سأذهب لحظة للحمام.

حاول بجهد أن يتذكر إن كانت أليسار تدخن سابقاً لكنه لم يتمكن من التذكر... والدها رجل أعمال مهم، شاب نوعاً ما... صحة والدتها جيدة... لماذا الثياب السوداء؟ كانت القهوة والسجائر قد وصلتا قبل أن تعود أليسار، كان واضحاً من الاحمرار الذي لون عينيها أنها ذهبت للحمام للبكاء.
لن يسألها عن الثياب السوداء، لن يتطفل عليها أكثر... لا يريد إحراجها أكثر... ولا يريد أن يعرف أي مآسي جديدة... فقط يريد أن يعرف لماذا لم تسأل ماريا عنه طيلة فترة غيابه.

- احكي لي... شفت الحملة اللي عملناها عا الفيس بوك لإطلاق سراحك؟
- لا.... من يوم ما طلعت ما فتت عا النت... حاسس بإحباط كبير.
- الأمور عم تتطور بشكل مخيف يا سامر، العنف صار هو الأساس... اللي مثلنا معظمهم اختفوا من الساحة، اليوم الصوت الأعلى للاتجاهات المتطرفة.
- الدين ما هو تطرف يا اليسار.
- اللي عم يصير ماله علاقة لا بالدين ولا بالله.

شعر بكراهية شديدة لها، ربما كانت هي وراء إلقاء القبض عليه... من يدري، ربما راقبوه وعن طريق متابعته عرفوا كيف يصلوا لشباب التنسيقية.

لا يريد الدخول في تفاصيل معها، بالنسبة لها الثورة نوع من الترف، التغيير لا يهمها كثيراً... هي منتمية للأقليات... والدها ثري... شيء طبيعي أن تتحزب الأقليات وراء النظام... الأثرياء معظمهم مستفيدون من النظام... يشعرون بالخوف على مكتسباتهم، الحقد الذي سيطر عليه منعه من الحديث بشكل عادي معها... أصلاً صداقتهما لم تكن بالعمق الذي يمكنه من البوح لها بأسراره... سيتجنب الدخول في التفاصيل... سينسحب...

- بدي أعتذر منك... عندي موعد ضروري مع طبيب العيون، لازم أمشي.
- أوك موفق... ومعافى.

بينما كان يسير باتجاه ساحة السبع بحرات توقف ولعن الغباء، والشيطان والعفاريت التي ركبته ودفعته للمغادرة، كان عليه أن يسأل عن ماريا... هي السبب الوحيد لمجيئه للمقهى.

لم تشعر ماريا بمرور الوقت، لم تشعر بالجوع أو بالعطش... كانت تلتهم السعادة التي يولدها وجودها بقرب نزار، الشريك الذي بحثت عنه طويلاً... الغامض الذي كان يرافق حماماتها المسائية... هو في متناول يدها الآن... تحضنه... تقبله، الكون ينتهي في لحظة ويبدأ في أخرى... كم مر من الوقت... بالتأكيد مرت ساعات طويلة، فارس الأحلام الذي تحلم به... ذكي، مسل، تستطيع الحديث معه لساعات طويلة دون أن تشعر بأي ملل... تناست تحذيرات الأم من دخول شقة شخص عازب، تناست تعليمات مدارس الأحد بألا تقبل رجلاً غير زوجها... السعادة التي تغمرها لا يمكن وصفها... اللذة التي تحصل عليها من ملامسة صدغيه... من بحث أناملها عن فكرة تجول في رأسه...

- أنا سعيدة نزار.
- اليوم هو أجمل يوم في حياتي... بصراحة هل كان شكلي مرعب قبل الحلاقة
- تبتسم... لا... أبداً.
- لا تسخري مني.... عندما صففت شعري في الصباح اكتشفت أنني أحاول إخفاء الحقيقة بخصلة زائفة، أنت أنهيت كل محاولاتي لتزييف الحقائق بضربة واحدة.
- ضربة معلم.
- شو بدنا نعمل...
- أي شيء... المهم أن نعمل شيء.
- أنا متفق معك بأن الاختراع قد يؤدي لبلبلة في النظم الاقتصادية، سيغير تركيبة هذا العالم... لكنهم يتحدثون بشكل دائم عن نظام عالمي جديد... ربما هي البداية هنا، نظام عالمي جديد... الطاقة فيه متوفرة كالهواء... مجانية مثله ونظيفة.
- الهواء ملوث.
- حالياً بعد عقود من استخدام الصندوق، سيعود الكوكب للشكل الذي كان عليه قبل قرون.
- نزار لا أعرف... أنت حالم، ربما لهذا السبب أحبك.
- أنت تحبيني....؟
- آه... لسا ما لاحظت...؟ معك معك بتلاحظ.
- ماريا... لا أعرف كيف أشرح لك الأمر... أنا كصفحة كتاب بيضاء، أنا عذراء...
- نزار... أنا أيضاً عذراء...

العناق الذي تلا اعترافات العذرية تبادل فيه العاشقان بدون كلمات خواطر حول العذرية، أنا بنت... لا يمكن للشاب أن يقول أنا ولد أو أنا أعذر... الصيغة المؤنثة للعذرية تطغى في العربية.

- حلمي بالجنس، بالسعادة التي يمكن أن يصل إليها الإنسان بالممارسة الجنسية... أمور ثانوية، الشعور الذي أشعر به الآن يفوق أي لذة يمكن للجسد أن يعرفها... هل هذا هو الحب.
- لا أعرف يا صغيري، شعوري بقربك يعطي نشوة تفوق النشوة التي كنت أوصل نفسي لها، ربما يكون هذا من تأثيرات الصندوق...

- لا أعلم... لكن إن كانت الطاقة التي تعبر أجسادنا هي مولدة السعادة، الحب... الله... فإن الاختراع سيمكنه حل مشاكل الكون كلها.
- ما العمل... يمكن تعديل الجهاز... ليكون الهدف الأساسي منه بث موجات الحب هذه بترددات تغطي الكرة الأرضية، يمكن نشر الحب للجميع... جعل البشر يحبون بعضهم رغم أنوفهم... نزار ستكون كيوبيد العصر.
- برأيي هذا التطور الذي أحلم به، تحويل البشر من جزء من السلسلة الغذائية حيث يلتهم الأقوى الأضعف... ليصبحوا كائنات نورانية.
- ملائكة وقديسين، نزار بتعرف أنك بتشبه المسيح شوي.
- شو جاب لجاب... المسيح كان مصلع شوي، بس المجدلية ما جزت له جدايله مثل ما عملتي فيي ... دليلة خانم.
- لا قصدي فكرة النور، المحبة والتسامح... وكمان موضوع الجنس... الروحانيات... الترفع عن الجسد ومتطلباته... المفترض أن المسيح كان بهذا الشكل.
- هذه القصة التي باعونا إياها في التاريخ، التاريخ كتبته الكنيسة التي كانت دوماً السلطة أو جزء من السلطة.
- أنت يمكنك التشكيك بالتاريخ، بالماضي... أنا أشكك بالحاضر.
- ماريا أنا أشكك بالحاضر، أشكك بالثورة وبدوافع الشباب، أشكك بالنظام وبمصالح رموزه، أشكك بالدول والقوى العظمى وتوريطها لكم....
- نزار أنت تتحدث عن الثوار؟
- لا يا صديقتي، عن الشعب... هم لم يورطوا الثوار فحسب، بل ورطوا الشعب بكامله... ورطة كل من غمس أصابعه أو ريشته بالدماء، جحافل من القتلة باسم السلمية، المقاومة، الحرية، والله.... كلنا تورطنا... أنا تورطت بصمتي كما تورطت أنت برغبتك في الإصلاح... كذلك تورط سامر بالثورة.
- ورطتنا هي الوطن يا نزار.

لم تكن الإشعاعات الصادرة عن الصندوق مرئية، لكن تأثير موجات الحب على الجسدين المتلاحمين كان واضحاً، كانا يرقصان رقصة بدائية متوحشة، رقصة تمتزج انسيابيتها بتوحشها... كان النور في الخارج يتلاشى لتحل مكانه ظلمة كحلية، ظلمة كالحبر تزداد سواداً لتبتلع كل ما هو في الخارج.... الأبنية والكائنات، أصوات القصف ورشقات الرصاص، رجال الأمن والسيارات في عتمة الوجود الدمشقي الراهن.

وحيدة في المقهى جلست تتحس شكل المهانة التي تركها به سامر، غير معقول ألا يدرك مشاعري تجاهه... غبي، لم ينتظر ليسمع مني لماذا ارتديت الثياب السوداء، أنا لا أعني له أي شيء، هو منشغل بهلوساته الدينية... يريد هداية الأكوان كلها لتصبح البشرية جزءاً من فرقته الناجية... الغريب والمؤلم أنه سيقبل بهداية النصرانية ماريا التي يعتبرها من أهل الكتاب، بينما يرفض هدايتي لكوني نصيرية... رقم تقارب الكلمتين لفظياً إلا أن الفرق كبير بالنسبة له، هي من أهل الكتاب... بينما أنا مارقة عن الدين.... من أيام ابن تيمية حكم عليّ بالكفر ولن يغير أي شيء شعوره تجاهي.

كغيرها من العلويات كانت أليسار تتمتع بنوع من الرهبة لدى أفراد الشلة، الصداقات يغلفها نوع من الخوف، شعور بالريبة من الكائن العلوي الذي لم يعد كما سبق مصدراً للتندر والتكفير، بل صار يحمل شكل القمع السلطوي، أن تكون علوياً بعد بدء الحراك هو بمثابة أن تكون عنصر أمن بالنسبة للبعض.

صفحتها على الفيس بوك تحولت منذ بداية الثورة لتصبح سجلاً لطلب الحرية للمعتقلين، رصد لأي اعتقال يتم لشباب التنسيقيات، "بدنا ياه وبدنا الحرية للكل" علامة تجارية تتقاسمها مع بضع صبية انتقلن من الفسبكة العادية للفسبكة الثورية.

منذ أيام اعتقلت ليلى، مثلها كانت من جماعة بدنا ياهن وبدنا الحرية لكل، سحبت من الحدود مباشرة للسجن، تواجه تهماً عدة أمام محكمة الإرهاب... هل سيأتي دوري قريباً؟ أنا لم أخرج لشاشات الفضائيات المغرضة لأتبرأ من النظام، ليلى تركت المعارضة تلهوا بها، شجعها كمال على الظهور على الأقنية الفضائية المعادية للنظام، لم تحمل السلاح أو تروج لحمله، كل ما فعلته هو طلب الحرية للمعتقلين، صفحات المنحبكجية تطالب برأسها للخيانة العظمى، صفحات الثوار تطالب بحريتها كونها ناشطة سلمية، بعض الخبثاء من الثوار يتناقلون إشاعات عن اعتقالها في سجن النساء، هي شخصية معقدة ويصعب التعامل معها، الحديث الهاتفي معها يبدأ بود مبالغ به وينتهي أحياناً بالصراخ.... "مو سهلة هاالمرا" هكذا كان المهذبين من الثوار يصفون فورات غضبها غير المبرر وحنقها الذي لا يمكن تفسيره.... أن تكون معها بزنزانة واحدة هو الجحيم بعينه، حسبما ذكرت قرينتها "المفسبكة الأشهر": هي ورقة في يد النظام، يستخدمها لتعذيب المعتقلات، المئات سيوقعن على أي شيء يطلب منهن مقابل الخروج للحرية والخلاص من معايشتها الزنزانة نفسها... ناشطة شيوعية سابقة أكدت وحلفت الأيمان المغلظة: "وحق الخضر والعدرا والله والرسول ومار مخايل ومار شربل والإمامو علي" بأنها ستخرج في مسيرة تأييد للقائد المفدى إن بقيت ليلى في نفس الزنزانة.

كانت القهوة قد شارفت على الانتهاء عندما سمعت أصوات رشقات نارية أتت لتعقب الصمت الذي خلفه دوي التفجير... ارتشفت الجرعة الأخيرة وطلبت الحساب من الجرسون الذي بدا وكأن الأمر لا يعنيه... رشقات الرصاص هذه لا تؤثر به، صارت تعني أن عدد من يطلبون الحساب ويستعدون للمغادرة سيزداد، عشرة دقائق وتعود حركة السير في الخارج لطبيعتها ويمكنها العودة للمنزل،

- الإنسان هو الكائن الأكثر قدرة على التأقلم... سأعود للبيت وسأنسى الأصدقاء، سأتناسى من تبقى منهم وسأتذكر فقط الذين رحلوا.

وفاة والدها تركت أثراً محدوداً لديها، الزي الأسود، مجلس العزاء، أصدقاء الوالد... الشهيد والكلمات التي ألقيت في التأبين... كلها مجرد كلمات، لم تشعر أليسار يوماً بالحب الحقيقي تجاه هذا الرجل...

هو والدي بحكم العلاقة البيولوجية فقط... انتماؤه الجنوني للنظام كان دافعه الانتماء الطائفي والمصلحة.

أخ يا سامر كم أنت غبي، أنا علوية بقدر ما أنت بعثي، استمر في الجري وراء ماريا... هي لا تشعر بوجودك كرجل... أنت الخاسر الوحيد.

في الخارج كانت الوجوه الشاحبة تسير وقد بدأت تتناسى رعب التفجير والخوف الناجم عن رشقات الرصاص، سارت أليسار لا تدري إن كانت دموعها تنهمر على الفقد الشخصي الذي ألحقه الموت بعائلتها، أم على فقدها سامر الذي أعمته مشاعره لماريا عن أن يرى فيها الأنثى.... سارت وكانت دمعتها تتجمد في عينها لتصبح الدمعة الأخيرة التي تذرفها في هذا المكان المسمى وطناً

فاصل

بعد كل لقاء بين نزار وماريا، كان الجنس يتحول لطقس روحاني، الممارسة تحت تأثير الإشعاعات المنبعثة من الصندوق كان لها مفعول خرافي، الطاقة الأهم في الكون هي طاقة الشمس.... لكن الطريق الأسلم لصرف هذه الطاقة هو الممارسة الجنسية.
حلقات الصوفية، الصلاة، الدوران حول الأماكن المقدسة، الحج لمختلف بقاع الأرض .... كلها وسائل ساذجة لصرف الطاقة الفائضة التي تختزنها أجسادنا، الثورات والحروب، الرياضة والجري السريع... كلها بدائل لصرف الطاقة بدل من التفكير بالطريقة الأسلم لهذا التصريف.

شخوص أي حكاية لها ماضيها، دوافعها، مستقبلها.... حكايتنا هذه ليس فيها حبكة، نحن مجرد شخوص تتفاعل مع بعضها يدفعها قدر كتب لها أن تبقى متحجرة طيلة سنوات الصراع، نزار وماريا يكتشفان الحب للمرة الأولى كل يوم،

سامر يتحول تدريجياً ليصبح الكائن السلفي الذي طالما حلم بأن يكونه، أليسار تتنازعها رغبتها بأن تكون الأنثى التي يحلم بها سامر ولكنها في الوقت نفسه تبني جداراً عازلاً يحميها من انجرافه وراء وهم السلف الصالح والفرقة الناجية.

لكتابة عمل روائي يفترض بالمقترف أن يقدم تعريفاً للشخصيات، أن يضع حبكة لحدث ما... تتسارع الأحداث لتصل لذروة، ثم يأتي الحل وتنتهي الرواية.
الإغريق واجهوا صعوبة في حل العقدة عندما تداعت الأحداث ليصبح أوديب عاشقاً لأمه، الحل غدا مستحيلاً وكان الحل الوحيد هو الإله القادم من الآلة "ديوس إكس ماشينا" .... قتلنا الله في بداية القصة، لم يعد لدينا مجال للخلاص.... الشخوص تسير على غير هدى ولا يربطها ببعض سوى ذكريات ما قبل الهجرة، هذه الهجرة التي كتبت على السوريين بلا استثناء.

شخصيات هذه الحكاية مازالت تعيش حاضرها وتنتظر النهاية، التغيير الوحيد الذي حصل بعد خمسة أعوام من بداية الحكاية... هو أنه لم يبق أحد منهم في سوريا.

أليسار غادرت إلى باريس وهي تتحف الصحافة الفرنسية بين الفينة والأخرى بمقال عن كونها العلوية المعارضة للنظام...وبين الفينة والأخرى تظهر منتضية حاسبها المحمول في إحدى حدائق باريس وهي تسطر ذكرياتها عن الثورة السورية، ذكريات مكثفة لدرجة أن الأشهر الستة التي عاشتها في الداخل أيام الحراك السلمي ما زالت تمدها بمادة خصبة للكتابة والإبداع بعد مرور ستة سنوات على خروجها العجائبي.

مازن يقبع في منفاه الخليجي الاختياري، يتابع أخبار أليسار وإبداعاتها، ويتحف متابعيه بأحدث ما تنز به تاستاتورات أدباء العصر.

سليم هو الوحيد الذي فقد كل شيء، فقد الحلم بالعودة بينما كسب كل المهجرين حق اللجوء... تمر الأيام وهو يتساءل عن معنى لما حدث، الألم يعتصره وكلماته ترن في الخواء: لينتصر النظام... لتنتصر المعارضة... المهم أن يتوقف هذا القتل المجاني

في مكتب العمل وعلى مقاعد خشبية في قاعة الانتظار، جلس سامر ينتظر دوره للتسجيل، بالقرب منه وقف المترجم الذي يفترض به أن يترجم له المطلوب منه من مستندات وأوراق لإنهاء إجراءات الحصول على معونة البطالة.

- بقي حوالي الربع ساعة على موعدك، سأقف في الخارج لأدخن قبل الموعد
- سوف أخرج معك.
- لم أعلم أنك تدخن!
- لا استغفر الله... التدخين حرام... الله يعفي عنك، أفضل الانتظار في الخارج.

- سامر! كم مر عليك من الزمن في ألمانيا؟
- حوالي السنتين، السنة الأولى قضيتها في الكامب، الله لا يوفقهم... حياة لا تطاق... منذ عشرة أشهر وأنا أعيش في شقة، مقبولة لكنها صغيرة... لو أنني متزوج لكانت الشقة أكبر

نفخ المترجم سحابة كبيرة من الدخان في وجه سامر.

- الله يطعمك الجازة وبنات ألمانيا شي حلو كمان.... بس بدك تحكي ألماني معهم، التطبيق هون ما بيمشي حاله بالعربي... وقصة الثورة والنظام والتنسيقيات ما عادت بتطعمي خبز ها الأيام، الألمان تعاطفوا معنا كام سنة، بس اللي ما بيشتغل هون ما بياكل.
- طبعاً طبعاً بدي أتعلم اللغة، بس لسا نفسياً تعبان شوي من التغيير.
- ابني سامر... سماع منيح، صار عمرك خمس وعشرين سنة، قضيت منهم كم شهر بالحبس وثلاثة على الطريق من تركيا لصربيا لضراب السخن، وصار لك سنتين بألمانيا، يعني من الطبيعي بس تجي لتشحد من مكتب العمل، تعرف تقول لهم من مال الله يا محسنين بالألماني وما تكون بحاجة لمترجم.
- ليش هيك عم تحكي أستاذ؟ أنا والله تعبان نفسياً كتير، من سنتين والحكومة الألمانية عم تماطل وما عم يساعدوني بإجراءات لم الشمل.
- أيه طبيعي لأنك بدك تجيب عمتك، وأي نعم هي اللي بقيانة من ريحة الوالد الله يرحمو، بس بألمانيا ما بيشموا ها الريحة، ولم الشمل للأقارب من الدرجة الأولى... وعمتك الله يخليلك ياها، ما وش تعتير تجيبها لألمانيا لتشحد عليها وتشغلها لفاية وطباخة بالشقة الأكبر اللي لح تشحدها من الدولة لأنو عمتك عايشة معك.
- ....

- أنا عم حاكيك مثل أخ أكبر منك... لمصلحتك.
- طبيعي أستاذ، بدي أسألك أنتوا اللي بترجموا عمل تطوعي شو بيطلعلكم غير أنوا بيسرعوا بإجراءات التجنيس تبعكم؟
- عفواً ما فهمت قصدك؟

- أنا بعرف كل شي... بتكونوا مقدمين على الجنسية الألمانية ولازم تعملوا ساعات خدمة اجتماعية مشان تتجنسوا.
- ما بعرف.. أنا معي الجنسية من عشرين سنة، وكنت عم ساعد طالبي اللجوء بالترجمة كعمل إنساني، بدون أي مقابل... العائد الوحيد اللي كنت أتوقعه أني أساعد بني آدم يستحق المساعدة...
- أيوه
- بس الواضح أني كنت مالي فهمان اللعبة مثل حضرتك... يلا سلامات...
- وين رايح أستاذ؟
- رايح دور على رزقي، وبلش بمعاملة لم شمل لسلفة بنت خالة إبن عمتي...
- والترجمة أستاذ؟؟؟
- بمكتب العمل صاروا بيفهموا على اللي من نمرتك، حكيلهم عن التنسيقية وأنك كنت بالحبس، ومن مال الله يا محسنين... قولها بالعربي أكيد صاروا بيفهموها.
- أصلاً هذا اللي كنت متوقعه من واحد نصراني مثلك.
- أيه واللي عم تشحد منهم بالمناسبة نصارى وكفار... وإذا ها الحكي ضد مبادئك روح طلوب لجوء بمكة.

وقف سامر ينظر بكراهية لسحابة الدخان التي خلفها المترجم خلفه، غصت شتيمة سوقية ممتزجة برغبة في البكاء في حلقه، عادت ذكريات الماضي تلاحقه، حقده على ماريا التي تخلت عنه رغم أنه لم ينسها لحظة في لحظات ضعفه، كان يظن أن دينها يمنعها من الارتباط به، لكنها تعيش مع نزار، ونزار مسلم... لم يكن الدين، ما الذي جعلها ترتبط بهذا المعتوه، حالم يدعي أنه عالم ومكتشف...

نفس الشعور بالوحدة الذي رافقه من لحظة ركوب القارب المطاطي في تركيا وحتى حصوله على حق الإقامة في ألمانيا.... شعور بالوحدة القاتلة، الغدر الذي رماه به الزمان....

- نيشت فيرشتهين.... قالها لموظفة مكتب العمل بفخر، لا أفهمك.... مورغن دولمتشر كومن.....

في الجامع التركي هناك مجموعة من الشباب المسلمين، سيساعدونه لوجه الله وسيأتي أحدهم معه للترجمة، على الأقل هم يعرفون القوانين، يعرفون كافة حقوقه وما يمكن له أن يطلبه من الحكومة الألمانية من مساعدة.

- أصلاً هذا المترجم حمار، من أول ما أخذت رقمه من البلدية كان واضح أنه ما بيعرف شي، إي إذا مكتب العمل والسوسيال ما بيعرفه مع أنه ساكن من سنين هون.

انتقل إلى رحمة الله تعالى

استفاقت ماريا على صوت مذياع عال، آيات من الذكر الحكيم، مارشات عسكرية... رعب مخيف كان يسيطر على جسدها الذي كان يرتجف... تحسست نزار الذي كان مستغرقاً في النوم، يشخر وكأنه ينشر جذع شجرة ..... ما زال نائماً وكأن صوت القرآن لا يرعبه....

في كابوسها العتيد كان المسيح يظهر لها فارداً ذراعيه رأسه متدل على كتفه الأيمن... الدم يسيل من خاصرته، أكليل الشوك... كما في الأيقونات التي تزين جدران بيت الأسرة، الاختلاف الوحيد أن المسيح في كابوسها الأزلي كان يمد لساناً مزرقاً بين شفتاه القدسيتين، ومن رقبته كان يتدلى حبل ثخين مجدول.... اسم الصليب... من وين أجت المشنقة

- نزار... سامع صوت الراديو
- أي اطفيه لو سمحتِ بدي نام
- فيق البلد على كف عفريت، الرئيس مات

ينتفض نزار مذعوراً....

- كيف مات، سمعتي الخبر بالراديو؟؟؟ إيمتى... ليش ما فيقتيني أول ما سمعتي الخبر..؟
- لأ... بس الراديو.... قرآن وموسيقا جنائزية ، مثل يوم مات أبوه وأخوه
- لكان كيف عرفتي أنه مات؟
- بالحلم، أول مرة بدقق بوجه المسيح، بتعرف المسيح المشنوق فوق قاسيون...
- أيه...؟
- وجهه اليوم كان واضح، هو بشار
- بس هذا حلم حبيبتي...
- ما بعرف بس هو مات... أنا متأكدة... شو الفرق بين الحلم والحقيقة ما عدت بعرف...
- ممكن... أنا كمان ما عدت أعرف الفرق

ينهض من فراشه، يتحسس كرشه المتدلي ويذهب للمنضدة التي عليها الاختراع، يدفع صندوقه الذي سيحل كافة مشاكل الطاقة في العالم جانباً ويخرج كراس صغير من درج المكتب ويكتب عليه بخط يحاول أن يبدو جميلاً

في صباح العاشر من حزيران عام ألفين وتسعة عشر بعد الميلاد، انتقل السيد الرئيس بشار حافظ الأسد إلى رحمة الله متمماً واجباته الدينية والدنيوية.

يعيد الكراس إلى الدرج وينادي ماريا، تعالي للسرير لنكمل ما بدأناه قبل ستة سنوات...

التأثيرات الجانبية للاختراع كانت نتيجة لنقل الطاقة لاسلكياً، الأمواج كان لها تأثير على العقل البشري، الحب كان النتيجة الحتمية للتعرض لهذه الأمواج والإشعاعات...

تناقشا طيلة السنوات الماضية عن اسم للصندوق، نزار كان سعيداً بتسمية الشرائح الكربونية ثنائية البعد بالشكث، لكن صندوق الطاقة كان يؤرقه، بعدما عرفا التأثيرات الجانبية للأمواج المنبعثة من الجهاز أراد نزار تسمية الاختراع بصندوق الحب، ماريا التي غدت سيدة البيت.... اعترضت لأن الاسم كان مبتذلاً...

- الله محبة، هذا المكعب هو الله.

لم يجرؤ نزار بعدها على التوجه لمكتب براءات الاختراع للحصول على اعتراف بإنجازه....

- كيف يمكن أن أطلب تسجيل اختراع اسمه الله.... سيقيمون عليّ الحد.

انتهى يومها النقاش وبقي الله على المنضدة، مصدراً للحب، ولإنارة الغرفة الصغيرة ولصنع القهوة.

- شو رأيك حبيبتي، بعد ما راح المرحوم... البلد بحاجة لكل شيء، أي شيء أهم... الطاقة أم الحب؟

لم يسمع جوابها لأن أصوات متدخلة من رشقات رصاص، أصوات قصف بالمدفعية الثقيلة تنطلق من قاسيون لتقصف أوكار المعارضة المسلحة في أحزمة الفقر المحيطة بالعاصمة، أصوات كانت تغطي على كافة حواراتهما... وحده صوت الراديو يصدح بالقرآن كان مسموعاً...

قذائف الهاون العشوائية والبراميل المتساقطة من السماء كانت تعوي بين الفينة والأخرى لتغطى حتى على صوت القرآن الأزلي.... صفير عال كان أخر ما سمعه بينما كان الاختراع يختفي خلف سحابة من غبار الإسمنت المتفجر... ظلام غطى المكان وطمس ملامح العشق التي كانت تزين المكان في السنوات الخالية.

على أرضية الغرفة تناثرت ذرات الشرائح الكربونية ثنائية البعد واختفت مباشرة تحت الكتل الإسمنتية المتساقطة من السقف الذي اخترقته قذيفة...

القذيفة لا تحمل هوية مؤيدة حزينة على رحيل القائد الرمز ولا يزينها علم الثوار المبتهج برحيل المذكور... مجرد قذيفة بددت النور وبعثرت شتات الله في المكان.

ألمانيا 2016

مدخل يمكن تخطيه للملحد الكسول أو المؤمن التنبل، فيصبح خاتمة.

إذا كنت عن رب البرية سائلاً .... فلا هو موجودٌ ولا هو عادلُ

ينسب البيت السابق لمعروف الرصافي، لا نعلم حقيقة أي شيء في هذا الكون، قد يقول البعض أن نسبة البيت مؤكدة وأنه في كتاب له، لكن الحقيقة أكثر غموضاً من أن تسمح لنا أن نؤكد أي شيء في الكون

دوران الأرض حول الشمس حقيقة ما زالت جماعات بشرية تنكرها بعد قرون من تأكيدها، وما يوشع بن نون إلا الرائد الأول في محاولات إيقاف الأرض عن الدوران.

تفترض نظرية النسبية حقائق لا يمكن لمن درس فرعاً أدبياً التعمق بها، فعلى سبيل المثال لو أننا كنا في مركبة تسير بسرعة 99% من سرعة الضوء وأمامنا مركبة تسير بسرعة الضوء فهل ستختلف المسافة الفاصلة بيننا؟؟؟
نترك النفي للعلماء، وندرك أننا بمداركنا كقراء عاديين سنكون مندهشين من الإجابة؛ هذا الإدراك هو الدافع الأساس للإيمان، الإيمان بالنظريات، بالعلوم، بما نراه ونسمعه، وبما نعتقد وجوده وفق نظريات، خرافات، عقائد وقناعات.

الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الأخر والقضاء والقدر خيره وشره، هذا هو ما تتطلب العقيدة التي تحتويني كعنصر فيها بحكم الولادة، وتنعتني بالإلحاد لأنني شذذت عن الطريق السليم

الإلحاد لغة الميل ويستعمل في الشرع: الميل بعد الاستقامة قال الله تعالى :

{إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا}
{وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }

الفكر الديني الحالي بمؤسساته "العلمية" يفترض أن الإسلام هو الطريق القويم وأن البعد عنه هو الضلالة والإلحاد من اللغة هو الميل ويذكر لسان العرب:

اللَّحْد واللُّحْد: الشَّقُّ الذي يكون في جانب القبر موضِع الميت لأَنه قد أُمِيل عن وسَط إِلى جانبه، وقيل: الذي يُحْفَر في عُرْضه؛ والضَّرِيحُ والضَّرِيحة: ما كان في وسطه، والجمع أَلْحَادٌ ولُحُود.
والمَلْحود كاللحد صفة غالبة؛ قال: حتى أُغَيَّبَ في أَثناءِ مَلْحود ولَحَدَ القبرَ يَلْحَدُه لَحْداً وأَلْحَدَه: عَمِلَ له لَحْداً، وكذلك لَحَدَ الميتَ يَلْحَدُه لَحْداً وأَلْحَده ولَحَد له وأَلْحَدَ، وقيل: لَحَده دفنه، وأَلْحَده عَمِلَ له لَحْداً.
وفي حديث دفْن النبي، صلى الله عليه وسلم: أَلْحِدُوا لي لَحْداً......

فمن تراثنا نعلم أن استخدام اللفظ قد تم بدهاء، فهو مرتبط بالموت، ولا يعزينا نحن جماهير الملحدين قول الرسول العربي الكريم "أَلحِدُوا لي لحْداً......" لأنه كان النهاية الحتمية لكل كائن حي.

عند سماع المناظرات والحوارات المرتبطة بالعالم العربي نجد أن الأساس فيها هو اعتبار الإلحاد على أنه خروج عن الدين الإسلامي الحنيف، نتجاهل في خضم عروبتنا أن الدين الإسلامي لا يشكل سوى خمس سكان الأرض اليوم وأن الأديان الأخرى ما زالت موجودة تكافح لإثبات أحقيتها باستلاب الجموع، الثقافة العربية الإسلامية المهيمنة علينا تدعونا للظن بأن الإسلام هو الدين الوحيد على وجه البسيطة.

أثناء طباعة الأحرف لاحظت أنني أستخدم وجه البسيطة وسطح الأرض ولا أستخدم كعادتي الكرة الأرضية؛ سبب هذا أنني صرت أشكك في كروية الأرض ودورانها بالرغم من غاليليو ومرور قرون على وقوفه في وجه الكنيسة التي سطحت الأرض قروناً طويلة حتى جاء العلم فكورها، السبب هو قضية كتاب ابن باز "الدر المنثور في الرد على من قال إن الأرض تدور" وهو كتاب علمي فقهي حسب توصيف مكتبات جامعات العالم العربي.

أين تكمن المشكلة، هل الفكر الديني هو النص الوحيد أم يتضمن النصوص التي تلته لتشرحه وتفسره.

المعضلة في الفكر الإسلامي هي تعدد مصادر التشريع، القرآن والسنة والإجماع وهي المصادر التي تتفق عليها غالبية الفرق الإسلامية، فيضيف إليها الشيعة العقل وتضيف لها المذاهب السنية القياس والاجتهاد والعرف والاستصحاب والمصلحة المرسلة وسد الذرائع وشرع من سبقنا ويبالغ البعض ليعتبر قول الصحابي مصدراً للتشريع.

بالنسبة للناظر من خارج المعمعة الفقهية والغير معني بالخلافات العقائدية؛ التي وإن بدت سنية شيعية بالغالب الأعم إلا أنها تحوي خلافات مسيحية إسلامية، وإلحادية إسلامية؛ تتجلى هذه الحرب على صفحات النت وفي الفضائيات المتعددة، فنقض النص الديني الإسلامي سواء أكان من مصدر إلحادي أم مسيحي هدفه نسف المنظومة المعرفية الفكرية لهذه العقيدة، مقابل طرح بديل أفضل منها... أفضل حسب قناعات المهاجم، أخطاء النص تأتي لنفي قدسية الكتاب مقارنة مع كتاب سبقه، الحرب الحالية على الإسلام لها أسباب عديدة منها:

الإسلام السياسي ونزعته للسيطرة.
الترفع الإسلامي واعتبار أنه الحق المطلق.
الفوقية التي يتعامل بها منتسبي هذه المنظومة مع الأخر، خير أمة أخرجت للناس.

هذا استفز مسيحية الأقباط والموارنة، وفتح جبهة حرب مسيحية على الإسلام.
أما فكرة حد الردة، وقتل الخارج عن الملة وتطبيق الحدود، فهي التي دفعت الملحدين لشن حربهم على الدين الإسلامي، كشكل من الدفاع المشروع عن النفس...

الإلحاد في العالم العربي اليوم بدأ بشكل عام لرفض الفكر الديني المتسلط، والذي بدأ يقوى وينتشر بفعل التمويل الهائل الذي نبع بين أقدام الوهابيين، أحفاد الغزالي وابن تيمية والإمام المحدث محمد بن عبد الوهاب...

ولكون الغالبية تنتمي للدين الحنيف بحكم الولادة، ودون سابق إصرار وتصميم... كان الهجوم الإلحادي منصباً على الدين الحنيف ومصادر تشريعه.

يتساءل العبد الفقير لو أن النفط نبع بين أقدام أحفاد القردة والخنازير في أربعينات القرن الماضي، ولنقل بعد تأسيس دولة إسرائيل وعلى حدودها مع جارها لبنان "المسيحي الماروني بغالبيته حينها"، ولنفترض أن الموارنة واليهود سخروا المليارات الواردة منه للتبشير بيهوه، ألوهيم وبسيدنا مار شربل عليه السلام، ألن تكون الاتجاهات الإلحادية اليوم من أصول موسوية ومسيحية في منطقتنا؟؟؟
النفط استغلته مشيخات وممالك الخليج لدعم مؤسساتها الدينية وتغذية الفكر الوهابي الذي تدين له بفضل وجودها كما هو الحال في السعودية، حيث أن تحالف الفكر الوهابي مع السلطة في أيام الملك المؤسس خدم المنظومة ليومنا هذا والدعم الهائل الذي ناله الفكر الديني تأثيره واضح في مراكز البحوث وفي الإنفاق السنوي الهائل على التبشير، الدعوة الوهابية والتي هي جزء من الحركة التاريخية لتطور الفكر الإسلامي، وكانت لها الغلبة بسبب الدعم المادي غير المحدود الذي نجم عن الفورة النفطية، اتجاهات أخرى كالصوفية والمذاهب الأقل تطرفاً لم يتوفر لها الدعم المطلوب... سيرورة التاريخ حولت الإسلام لإسلام سني يشكل الغالبية ويتدرج في تطرفه بالبعد أو القرب من مصادر النفط، واتجاه شيعي تبنته إيران الجاثمة أيضاً على بركة نفطية لا يستهان بها.

بعض من ألحد حاول التبشير لفكره كما هي عادة الأديان، فتحول من رافض للدين لمبشر لدين جديد، معاناتي كملحد معتدل بدأت عندما صار الطابع الفكري المتحزب يدخل في فكرة رفض العقائد... فبين الإلحاد، واللأدرية، شعرت بتأثير المذاهب الحنفية والمالكية ورأيت التأثير الأرثوذوكسي والكاثوليكي جلياً.

اللأدرية أو الأغنوستية بالنسبة لي تعكس المؤمن الكسول، الذي لا يتمكن من معرفة وجود الخالق ولا يرغب في ممارسة الطقوس، لذا ينتحي جانباً ولا يرفض فكرة الإله ولا يؤكدها... هو ملحد كسول ومؤمن تنبل.

وبدل من قرآن أو كتاب مقدس غدا أصل الأنواع المنهج الذي يجب دراسته وصارت كتب ريتشارد داوكنز، وستيفن هوكنغ هي أعمال الرسل، أو صحيحي مسلم والبخاري.
الخلاصة: إن غريزة التبشير هي إحدى الغرائز المهيمنة على الكائن البشري.

المحتوى